الباب الثاني

الأسلوب و الأديب

الفصل الأول

تمهيد

(١) ذكرنا في الباب الأول كيف يختلف الأسلوب باختلاف الموضوع، وقد رأينا أن ذلك الاختلاف اللفظي إنما كان ظاهرة محتومة لاختلاف طبيعة الفنون الأدبية من حيث عناصرها المعنوية أولاً، وغاياتها التعليمية أو التأثيرية أو كلتيهما ثانيًا، فكان لكل من المقالة، والقصيدة، والخطابة، والرواية أسلوب خاص، وانتهى بنا القول إلى هذه الكلمة المأثورة: "الأسلوب هو الموضوع".

هنا نقول في ناحية ثانية هي اختلاف الأساليب تبعًا لاختلاف المنشئين سواء كانوا كتّابا أم خطباء أم شعراء أم مؤلّفين إلى غير هذا، فالموضوع هنا واحد - خطابة أو كتابة أو شعر - ولكن الأشخاص يتعدّدون، فإذا بالأسلوب يختلف الفن الواحد باختلاف هؤلاء الأدباء، إذ ترى لكل منهم طابعًا خاصًا - في تفكيره، وتعبيره، وتصويره - ممتازا به من الآخر في هذه العناصر. وقد يصحّ لنا بعد ذلك أن نقول مع القائلين: "الأسلوب هو الأديب" أو هو الرجل إلى نحو ذلك من العبارات.

ومع ذلك ينبغي ألا ننسى أن المرجع الأول لهذين النوعين من اختلاف الأسلوب هو نفس الإنسان، وما يعرض له من داع ينشئ فيها الأدب،

فإذا أردنا بيان ذلك في الفنون الأدبية رأينا أن الأديب نفسه يعتمد عل عقله، ليشرح نظرية علمية، أو مسألة اجتماعية، أو قاعدة قانونية؛ فهو في هذه الحالة منشئ المقالة (كاتب) ومرة أخري نجده نفسه منفعلا ثائر العاطفة يتغنى آماله وآلامه بهذه اللغة الموسيقيّة الخاصّة فإذا هو شاعر، ومرة ثالثة يلجأ إلي العقل و العاطفة معا للإقناع التأثير مستعينًا جسمه ومظهره الحسي فيكون خطيبا، وأسلوبه الكتابي يخالف الشعري، وكلاهما غير الخطابي.

وهكذا تتشكّل النفس أشكالا شتّى، فتصدّر عنها فنون متباينة لكل أسلوبه الخاص وغايته الممتازة، فالشخص واحد والفنّ مختلف.

(٢) وإذا أردنا بيان ذلك بالنسبة للأديب عكسنا الوضع، فالفن واحد، ولكن الأشخاص يتعددون. وبذلك نجد لهؤلاء الأدباء آثارهم المتباينة في تكييف الأسلوب تبعًا لما يمتاز به كل أديب في عقله وشعوره وخلقه وثقافته ومذهبه في الحياة، وبناء على ذلك يستطيع قراء الأدب أن يبينوا في الفن الواحد، وفي الموضوع الواحد من الفن أساليب مختلفة في الكلمات، والصور، والعبارات، وفي طرق التفكير، ولون المزاج، ومستوى الرقي والتهذيب.

وخلاصة ما ذكر هنا تنتهي إلى أمرين اثنين:

الأول: أن مقتضي الحال - أو الدواعي - يحمل الإنسان على اختيار الفن الأدبي الذي يؤدي به ما يشاء: رسالة، أو مقالة أو خطابة، أو قصيدة، فيسلك في أسلوبه مسلكًا خاصًا هو هذه العبارات اللفظية التي تلائم فنّه. وقد مضى القول في ذلك.

الثاني: أن الأديب في حدود هذا الفن، ومع التزامه خواصه الأدبية العامة؛ يطبع الأسلوب طابعًا آخر ممتازًا، وخاصا به هو بحيث لا يتوافر لصاحبه في نفس الفن أو الموضوع.
وبذلك يتحقّق للأسلوب ميزتان: ميزة عامة من حيث هو خطابة أو شعر أو كتابة، وميزة خاصة من حيث هو أثر الأديب ممتاز؛ فالخطابة لها خواصها الأسلوبية العامة التي ذكرت، وحطابة الحجاج لها فوق الخواص العامة، ما يمتاز به الحجاج في مزاجه، وخلقه، ومذهبه في الحكم، وكلماته، وعباراته.

والشعر كذلك ذو أسلوب مميّز بالوزن والقافية والموسيقي وغيرهما، ولكن المتنبي مثلا في أسلوبه - زيادة على ذلك - خواص في التفكير والتعبير والسلوك تفرقه عن أبي تمام والبحتري والمعري..
وللكتابة أسلوب خال من قيود الشعر وتقاليد الخطابة، أما الجاحظ مثلا فيمتاز مع ذلك بلوازم في تعبيره وتصويره وإسهابه، لا تراها عمد البديع مثلا، ولا ابن العميد، ولا ابن خلدون، والأمر واضح في الكتاب المعاصرين. فكل من طه حسين، وأحمد أمين، والعقاد، والمازني، والبشري، له ميزاته في تفكيره وتعبيره، وطريقة عرضه الآراء، وطابع أسلوبه العام من الوضوح والقوة والجمال.

(٣) على أن هذه الميزات - أو الشخصية الأدبية - لا تكون فردية فقط بل تكون كذلك اجتماعية. فنجد العصر الواحد من العصور الأبية له طوابع عامة شائعة بين أدبائه. منها تتكوّن ميزاته الأدبية أو شخصيّته الأسلوبيّة التي يخالف بها سائر العصور.

ونجد الشعب الواحد له خواصه الأدبية التي تفرقه من آخر يوافقه في لغته، وجنس أدبه.

فالعصر الجاهلي له شخصيته الأدبية التي تتلخّص في أنها صحراوية بدوية. خشنة، جاهلة، مضطربة، ذكية. تعتمد على الحس أكثر من غيره. وتشق عناصرها الخيالية من المفاوز العريضة، والجبال الشماء والوعول الممتنعة. والظباء النافرة، والإبل الصابرة، والخليل السابقة، ومن الخباء والأطناب والأوتاد، والنؤى والأحجار، فكان الأسلوب اللفظي لذلك جزلا، قويّا، ضخما فيه جفاء الصحراء وسذاجة البداوة. وطبيعة الارتجال. تعده غريبا هنا وإن كان لهم مألوفا.

والعصر العباسي ذو أدب حضري، مترف، مثقف هادئ: مستقر. يعتمد على العقل المفكر، والعلم الكثير، والمزاج الرقيق، والحياة الخصبة الناعمة، والبيئة الاجتماعية المنظمة، ففاض الأدب بالذاهب الدينية والفلسفية، وامتاز بالتنسيق والعمق، واعتمد على الطبيعة الجميلة، والأزهار الناضرة، والقيان الفاتنة ورقّ أسلوبه ولانت عبارته، فكان أدبا حضريا مهذبا على العموم.

وعصرنا الحديث له طابعه العام في الأدب كذلك، يتراءى في هذا الجهاد المتواصل، والنهضة النشيطة، وحرية التفكير والتعبير، والتأثير الشديد بالآداب الأجنبية، والحضارة الغربية، والتجديد في إنشاء الأدب ودراسته والتخلّص من التقليد، وبلوغ النثر أسمى منزلة ظفر بها في تاريخه حتى رأينا الأسلوب دقيقا حرا، واضحا، جميلا. يقصد إلى خدمة المعاني والأفكار وحتى صار الأدب علميا موضوعيا طريفا مشاعا بين الطبقات.

(٤) كذلك الشأن في الأمم؛ فمنذ القرن الهجري الرابع أخذت الأقاليم الإسلامية التي فتحها العرب، ونشروا فيها اللغة والدين والأدب العربي، تسترد حريتها وتبعث قوميتها، وتحيا حياة مستقلة عن بغداد؛ فأخذ الأدب نفسه يتأثر بذلك في كل إقليم بمظهر ممتاز، متأثرا في هذا بتاريخ هذه الأقطار وطبيعتها، وخواص شعوبها الوطنية، وما توافر لها من نظم الحكم، وأحداث السياسة، وأنواع العلوم والفنون، وما كان لها من تراث لغوى أدبي حتى كان الأدب بالعراقي، والأدب المصري، والأدب الأندلسي، والأدب الفارسي كما هو معروف في تاريخ الأدب العربي.

وذلك مشاهد بيننا الآن، فالأدب العربي يعيش الآن في مصر، والشام، والعراق، والمغرب، وبلاد العرب، ومهاجر أمريكية، ومع ذلك نجده في كل والعراق، والمغرب، وبلاد العرب، ومهاجر أمريكية، ومع ذلك نجده في كل من هذه الأقطار يخضع لثقافة أهله وبيئتهم، وأحوالهم السياسية والاجتماعية، ودرجتهم في الرقي، ويتأثر أسلوبه اللفظي بذلك إلى حد كبير. ولعل الأسلوب في مصر أقواها وأبرها وأخصبها جميعا، لما أتيح لها من معاهد كبيرة، ومكتبات كثيرة، ودراسات منظمة، وعناية بالثقافة شاملة.

أما اللغات العامية في هذه الأقطار فالاختلاف فيها أوضح وأوسع مدى، لخضوعها للحياة الموضعية، واختلاف الطارئين على كل قطر، وتباين نظام الحياة ومشاهدها، وعدم خضوعها لوحدة عامة مشتركة بين هذه الشعوب، ولولا هذه اللغة الفصيحة العامة التي توحد بين الأساليب العربية في التأليف العلمي والإنشاء الأدبي لكان اختلاف الأدب قويا

ولضعف التفاهم بين المتأدبين كما ضعف بين العوام في هـذه الـبلاد المتباينة.

نعم، وجدنا الآن أمام دعوة لتحقيق الوحدة العربية الثقافية أو الأدبية، وعندي أن هذه الوحدة ستتم بسرعة بتأثير المطبعة والإذاعة، وتقارب مناهج التعليم، وكثرة البعوث العلمية؛ ولكن ذلك لن يمحو أبدا مظـاهر الأدبي الإقليمية إلا إذا اتّحدت مواهب هذه الشعوب العربية وبيئاتهم.

الفصل الثاني

الأسلوب و الشخصية

(١) كيف يختلف الأسلوب في الموضوع الأدبي الواحد؟ ذلك راجع إلى اختلاف الأشخاص الذين يتناولون الموضوع، أو اختلاف الشخصيات. ما الشخصية؟ وما عناصرها؟ وكيف تختلف باختلاف الأفراد؟ وما مظاهر هذا الاختلاف في الأدب؟
ذلك ما نحاول بيانه في هذا الفصل وما يليه.

الشخصية[١] ما يميّز الفرد من سواه، أو هي مجموع الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التي يتّصف بها الإنسان، أو هي الميزات التي تفرق الشخص من الآخر خيرة كانت أو شريرة، فالتعاريف قائمة على هذه الخواص التي نجدها في فرد ولا نجدها في غيره كما هي الأولى، وتكون خليقة: كالصدق، والشجاعة، والكرم أو ضد ذلك. وعقلية: كالذكاء، وصحة الاستنباط، وعمق التفكير أو عكسها. كاعتدال القامة، وقوة البنية، وحسن الهيئة وما سواها. وتكون اجتماعية: كالإيثار، والتحاب، والطاعة. ومزاجية: كالدموي والسوداوي، والبلغمي، والصفراوي، إلى غير ذلك مما يدخل في تكوّن الإنسان ويميزه من سواه.

١- راجع علم النفس: جـ٣ ص٣٧٠

وكثيرًا ما تتجلّى قوة الشخصية في الذكاء والجاذبية، والحكمة والصراحة، والثقة بالنفس، والشجاعة وقوة البيان، من تلك العناصر التي تدعو إلى الجمة والاحترام وتسمو بصاحبها إلى ذروة المجد في هذه الحياة.

والناس يختلفون في الشخصية بين قوي وضعيف. نابه وخامل. ثابت ومتقلب جبار صارم ورقيق وديع. ومبتكر نشيط ومقلد بليد.

وقد حفظت الأخبار التاريخية بعض الصفات التي غلبت على سواها وكانت رمزًا لشخصيات أصحابها كعدل عمر، وكرم حاتم، ودهاء معاوية، وجبروت الحجاج، وشجاعة عنترة. وتكون الشخصية للرجال والنساء، والمتعلمين والجهال، والأخيار والأشرار، وللأفراد والشعوب؛ كالنظام الألماني، والثقة بالنفس الإنجليزية، والفكاهة المصرية، والجندية التركية.. وهكذا.

(٢) والأدب معرض لظهور الشخصية واضحة؛ فمن المقرر أن العاطفة هي التي تميز الأدب من العلم. وهي التي تبعث فيه الخلود. وتشربه شخصية الأديب[١] ففي ديوان الشاعر - مثلاً - تجد مزاج الأديب، وطبعه وخلقه، ومذاهبه في الحياة، ومستوى ثقافته، وظل روحه، ونظرته إلى الحياة، وتفسيره للأشياء تفسيرا أدبيا أو فلسفيا. كذلك تعرف نوع كلماته وجمله. طريقة تصويره تعبيره.

ولست تجد اثنين يتفقان في كل هذه الخواص أو جلها؛ كمًا وكيفًا؛ إذ كل إنسان أمة واحدة فيما يصله بالحياة متأثرًا ومؤثرًا ذلك لأنه

١- أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي ص١٩ طبعة سابعة.

شخصية وحده فطرها الله ممتازة، وكونها ملابسات بعينها. فاستقامت ذات طبيعة محدودة وخطة خاصة. وكانت هي هذا الفرد الممتاز. ونتيجة ذلك أن الأديب حين يعبر عن شخصيته تعبيرًا صادقًا يصف تجاربها ونزعاتها ومزاجها وطريقة اتصالها بالحياة؛ ينتهي به الأمر إلى أسلوب أدبي ممتاز في طريقة التفكير والتصوير والتعبير؛ هو أسلوبه المشتق من نفسه هو: من عقله وعواطفه وخياله ولغته؛ تلك العناصر التي لا تتوافر لغيره من الأدباء. ومن ذلك تكثر الأساليب بعدد الكتاب والمنشئين.

فالجاحظ[1]- مثلاً - كاتب متعمّق مستقص يلحّ وراء المعاني، والأوصاف والخواطر لا يترك منها شيئًا، بطوع اللغة لعقله وشعوره وخياله فيوردها ألفاظًا دقيقة، ويرددها جملاً مزدوجة مقسمة، ويسهب فيها بعبارات موسيقية فيّاضة حتى يشتفي. يجد فيبلغ من التحقيق والإحاطة جهد العقول. ويهزل عابثا، وداهية ماكرا. يبكي ويسخر ما شاءت له براعته ومرونته الخلقية والدينية حتى كأن الجاحظ هو الدنيا جميعا.

وابن خلدون - في مقدمته - كاتب عالم شيخ وقور، معني بالأسباب والنتائج، ذو عقل رياضي يعرض النظريات ويأخذ في إثباتها بعبارات متشابهة لا تخلو من الأكلاف اللفظية، والركاكة الموسيقية. فليس في روعة الجاحظ ولا صفائه واستفاضته، ولا فكاهته وعبثه الماكر.

١- اقرأ الحيوان والبخلاء والوسائل.

وطه حسين[١] متأثر بالجاحظ في أسلوبه، لا يهجم عليك برأيه فيلقيه إلقاء الآمر، وإنما يلقاك صديقًا لطيفًا، ثم يأخذ بيدك أو بعقلك وشعورك ويدور معك مستقصيًا المقدمات محللاً ناقدًا، يشركك معه في البحث يسلمك الرأي ناضجًا ويلزمك به في حيطة واحتياط، ثم يتركك ويقف غير بعيد متحديًا لك أو ضاحكًا منك، وذلك في عبارات رقيقة عذبة، أو قوية جزلة، فيها ترديد الجاحظ وتقسيمه؛ فإذا قصّ أو وصف أخذ عليك أقطار الحوادث والأشياء، ودخل إلى أعماق الشعور وجوانب النفوس مدققًا، مستقصيًا يخشى أن يفوته شيء، ولا يخشى الملال في شيء دقيق الشعور صاف النفس، نبيل الجدل جاد يسير مع خصمه حتى إذا آنس منه الغضب أو التدلي تركه وانصرف.

أما أحمد أمين[٢] فرجل يريح قراءه ولا يندمج فيهم، يعرض أدلته، ويستأثر باستغلالها وينتهي إلى نتائجه، ويقدمها إليهم مستوية ناضجة بأسلوب واضح كل الوضوح، دقيق كل الدقة، ثم يعتكف دونهم ويغلق في وجوههم الباب، ويلقى الحياة بعقله أكثر من قلبه، ويقف منها على أرض من الحديد، يؤمن بالحقائق، ويؤديها بلفظها كما تعرفه الحياة الاجتماعية الواقعية ولو تورط في العامية لأنه مفتون بالاستعمال الإقليمي، وبتأثير والجو في العبارات والتراكيب.

هذا، والمشيب في رأي المعرى أزهار الرياض وزينتها:

والشيبُ أزهارُ الشباب فما له ** يُخفى وحسن الروض في الأزهار

١- اقرأ في الأدب الجاهلي، وعلى هامش السيرة. والأيام، وحديث الأربعاء ومن بعيد.

٢- اقرأ فجر الإسلام وضحى الإسلام وفيض الخاطر

ولكنه في رأي الشريف الرضي سيف مُصلت على الـرءوس تحملـه بدون عناء:

غالطوني عـن المشيب وقالـوا: ** لا ترع، إنـه جـلاء حسم
قلت: ما أمنُ من على الرأس منه ** صارمُ الحـدِّ في يـد الأيام

ذلك لأن المعري فيلسوف حكيم يعرف الدنيا ويقبل قوانينهـا الطبيعيـة مهما يضمر في نفسه من سخط واستيئاس، ولكـن الشـريف محـب للحياة، حريص على الشباب متصل بالنعم فلما أنـذره المشـيب فـزع وارتاع وتوقع النازلة.

• • •

ومهما يكن من تأثير الوراثة أو التربية في تكوين الشخصية[١]، فإنّـا نستطيع هنا أن نذكر بعض عناصر الشخصية وما قد يكون لها من أثر في الأسلوب:

١. الطبع:

فالرقيق الطبع ترق ألفاظه، وتسهل فقره، وتلين عباراتـه. والخشـن الجافي تجزل ألفاظه، وتوجز جمله، وتقوى تعابيره. إذ كانت الطبـائع تجدب إليها من التراكيب والألفاظ ما يلائمها رقة وجفاء كما تجده عند المتنبي والبحتري وعند جرير والفرزدق، والعقاد والمازني والبحتـري وعند جرير والفرزدق.

١- راجع (علم النفس) جـ٣ ص٣٧٢

قال القاضي الجرجاني في ذلك:

"وقد كان القوم يختلفون في ذلك وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسن اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع. ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة. وأنت تجد ذلك ظاهرًا في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كَزَّ الألفاظ، معقد الكلام، وعر الخطاب. حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرسه ولهجته"[1].

٢. أثر البيئة:

فابن البادية المقيم في الفلاة حيث يرى الجلد الغالب والطبيعة القاحلة الجرداء، والجبال الشم، والصخور الجامدة، والوعول الممتنعة. لن يكون كابن الحاضرة المترفة الخصبة يلقى العيش رقيقًا والملبس ناعمًا، والمزارع ناضرة، والإخوان ظرفاء. إذ أن ذلك يطبع الذوق والشعور بطابعه. فلا يقع اللسان إلا على كفائه من العبارات، فما كان عدي بن زيد والمنخل اليشكري كطرفة بن العبد والحارث اليشكرى.

ويقول الجرجاني في أعقاب كلامه السابق:

"ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك، ولأجله قال النبي ﷺ: من بدا جفا. ولذلك تجد شعر عدي وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤية، وهما آهلان، لملازمة عدي الحاضرة، وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو، وجفاء الأعراب، فلما ضرب الإسلام بجرانه

١- الواسطة، ص٣٢.

واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى ونشأ التأدب والتطرف اختار الناس من الكلام ألينه، وأسهله، وجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن، وحتى خالطتهم الركاكة والعجمة وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق فانتقلت العادة وتغيّر الرسم وانتسخت هذه السنة، واحتذوا بشهرهم هذا المثال وترققوا ما أمكن، وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول تبيّن فيها اللين، فيظن ضعفا فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا، وصار ما تخيّلته ضعفا، رشاقة ولطفا..."

ومن شواهد آثار البيئة في الأفراد واستحالتهم ما روى أن شاعرا بدويا قدم حاضرة فأكرمه صاحبها بهذين البيتين:

أنت كالدلو لأعدمناك دلوا ** من كثير العطايا قليل الذنوب

أنت كالكلب في حفاظك للودّ ** وكالتيس في قِراع الخطوب

فهمّ بعض أعوان الأمير بقتله، فقال الأمير: خل عنه، فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنا، وقد لا نعدم منه شاعرا مجيدا. فما أقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق، ونسبت إليه هذه الأبيات:

يا من حوى ورد الرياض بخده ** وحكى قضيب الخيزران بقده

دع عنك ذا السيف الذي جردته ** عيناك أمضى من مضارب حده

كل السيوف قواطع إن جردت ** وحسام لحظك قاطع في غمده

إن رمت تقتلني فأنت مخيّر ** من ذا يعارض سيدا في عبده[1]

١- مقدمة ترجمة الألياذة، ص١٣٨.

ومهما يشك في صحة هذه القصة التي تعددت رواياتها فليس من شك أن هناك جماعة من الأدباء والشعراء تغيرت آثارهم كلما تغيرت عليهم آثار البيئة.

٣. الثقافة والتربية:

فالمهذب المثقف يكون أعمق تفكيرًا، وأحسن ترتيبًا للمعاني، وأحرص على جمال التصوير، وصفاء التعبير، وبذلك تغزر معانيه وتهذب عبارته، ويتوافر له الملاءمة بين الألفاظ والمعاني.

والجاهل الذي لم تصقله التربية أو لم يزود بثقافة كافية، يقف عند حدود الطبع ويتوجه في الغالب إلى جمال اللفظ وإشراق الديباجة لعلها تعوض عليه ما فاته من ابتكار المعاني والغوص وراء الأفكار.

ولذلك وجد في الأدب العربي طبقات من كتاب العصر العباسي بلغوا بالترسل مكانة مهذبة. وتأثر شعرهم بذلك التهذيب والصقل، كما يقول ابن رشيق:

"والكتاب أرق الناس في الشعر طبعا، وأملحهم تصنيعا وأحلاهم ألفاظا وألطفهم معاني. وأقدرهم على تصرف وأبعدهم من تكلف"[١].

وليس من شك أن ثقافة الجاحظ مما يميزه من البديع والخوارزمي. وكذلك وجد شعراء المعاني الذين أغنوا بها الشعر كأبي تمام والمتنبي والرومي كما وجد الممتازون بجزالة اللفظ ورقته كالبحتري والشريف الرضي. حتى أن أبا تمام إذا فرغ لطبعه، وترك التكلف أتى بالعجب ودل على شخصية تجيد التفكير، وتحسن التصوير والتعبير لما ظفر به من ثقافة إسلامية جديدة أخصبت عقله، وكثرت معانيه.

١- العمدة، جـ٢ ص٨٤.

ولا شك أنك تجد فرقًا واضحًا جدًا بين أدباء مصر الـذين عاشـوا أول هذا العصر الحديث وبين من يعيشون بيننا الآن، أولئك ضعفت ثقافتهم فكانت آثارهم لفظية وهؤلاء ظفروا بثقافة قوية متنوعة فجمعوا إلـى سلامة العبارة جدة الموضوعات وثروة المعـاني فصـار الأدب قيّمـا نافعا.

٤. الابتكار:

فمن الأدباء من يلتفت إلى نفسه، ويثق بها ويحاول أن يفـتح بهـا أو فيها آفاقًا من التفكير أو الشعر أو التخييل ليعرضها كما هي في أقـوى أحوالها وأوضح خواصها دون تخرج أو تكلف، ثم يطوّع أساليب اللغة لطريقة تفكيره وتصويره فإذا به شيء جديد وشخصيّة ممتـازة، وقـد يلقي إنكارًا وعنتًا، ولكن مادام مذهبه قويًا خليقًا بالبقاء فـإن الثـورة عليه لا تكون إلا فترة تجتازها النفوس لقبول الجديد وإقراره ثم يصبح سبيلاً معبدة مسلوكة، وقانونًا متبعًا محبوبا. وقد لقي أسلوب الجـاحظ إنكارا ولكنه عاد مدرسة المتأدبين وواجه أبو نواس ثـورة ثـم عـاد قديما، ووجد أبو تمام والمتنبي من أخرجهما من زمرة الشعراء. وكـم يلقى المجددون من حرب المحافظين ولكن الأصلح منتصر غلاب.

هؤلاء المبتكرون هم أصحاب الشخصيات البارزة الذين أنشأوا مدارس أدبية غيرت مجرى تاريخ النظم والنثر وبقيت خالدة على الأيام.

• • •

ومما سبق يمكن ذكر الملاحظات الآتية:

- أولاً: أن أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نتيجة طبيعيّة لمواهبه وصورة لشخصيته هو، وإذا لا يمكن أن يكون صادقًا، قويًا، ممتازا إلا إذا استمده من نفسه وصاغه بلغته، وعبارته، دون تقليد سواه من الأدباء، لأن كل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره، وكيفية نظره إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب، والمقلد يفنى في غيره ويصبح شخصية منكرة ثقيلة على النفس لا تستحق عناية، ينصرف عنها الناس إلى أصلها الأول وبه يكتفون.

نعم هناك كتاب كبار يستطيعون طبع عصورهم الأدبية بطابعهم والتأثير في نفوس الناشئين بقوة أدبهم وبراعة أسلوبهم، كالجاحظ والبديع قديما. وطه حسين، والعقاد، والرافعي، وسعد زغلول، حديثا. ولكن ذلك لا يعفي المتأدبين من الاعتماد على أنفسهم وإظهار سمانهم الأسلوبية مع الإفادة من هؤلاء أو من بعضهم.

- ثانيًا: قد يبدو لبعض الناس التردد في أن الأسلوب صورة صادقة لصاحبه حين يرون حسان بن ثابت شجاعًا في شعره، جبانًا في عمله، والبحتري جميل الذوق في أسلوبه، قذرًا، رث الثياب. والمتنبي كريمًا في قوله بخيلاً في حياته.

وهذا من غير شك تناقض واضح بعرس ما قيل هنا للرد والتجريح، ولكن الشيء الجدير بالنظر أن هذه النصوص الأدبية التي تعد مظهرًا قويًا لميزات الأديب وسماته قد صدرت عنه في حالة نفسه خاصة هي حال الانفعال والتنبه العاطفي. وسلطان الوجدان على العقل فيقول ما

يشاء بوحي الساعة، حتى إذا ثاب إلى عقله عاش بطبيعته العاقلة الأصيلة دون الشاعرة الطارئة، وربما أنكرت حياته الثانية حياته الأولى مما يعد شبيها بانقسام الشخصية[١].

فالأسلوب الأدبي معرض الشخصية الانفعالية التي تسيطر على الإنسان سواء أكان منشئا يصدر عن عواطفه المستيقظة أم قارئا ثارت عواطفه إثر ما قرأ من أدب قوى صادق فصدرت عنه لذلك حركات أو أعمال، أو أقوال طريفة غير مألوفة، وقد تنبه لذلك ابن الأثير[٢] حيث يقول ما نصه:

"وأعجب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبعي في بعض الأحوال حتى أنها ليسمح بها البخيل، ويشجع الجبان، ويحكم بها الطائش المتسرع، ويجد المخاطب عند سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو إقدام على أمر مهول، وهذا هو السحر الحلال المستغنى عن إلقاء العصا والحبال".

فإذا كان ذلك شأن السامع فكيف بالمنشئ الذي صدر عنه هذا الكلام الساحر وكان ثمرة انفعاله الأصيل وعاطفته الإيجابية؟

-ثالثا: أن بيان هذه الصلة بين الأديب وأسلوبه وتوضيح جوانبها يقتضينا أن نتناولها من وجهين:

١- في علم النفس جـ٣ ص١٦٤.

٢- المثل السائر ص٢٦

الأول: أن نعرض النصوص الأدبية الجماعة من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو المؤلفين. ونحاول تعرّف شخصياتهم المتباينة استنباطا من هذا النصوص.

والثاني: أن نفرض أننا نعرف هذه الشخصيات ثم نتبين مظاهرها المختلفة في الأسلوب: ألفاظه وتراكيبه وصورها البيانية وهذا ما نحاوله في الفصلين التاليين.

وليس من شك أن هذين الوجهين شيء واحد أمام الناقد الذي لا يعرف غير النصوص الأدبية التي يدرسها؛ فالنصوص أمامنا كالدينار هو واحد ولكنه ذو وجهين؛ نرى في كل منهما شكلا خاصا يخالف الآخر وإن كانت المادة واحدة[1] كذلك نحن أمام الآثار الأدبية، نقلبها على وجهين لنرى فيها من وجه شخصيّة الكاتب، ونتبين أثر هذه الشخصية فيها من وجه آخر.

وسبب هذا اللجوء والاحتيال أننا في الأصل لا نعرف هذه الشخصيات إلا من الآثار الأدبية فنضطرّ إلى الوقوف عندها لمعرفة كل شئ على أنه لو أتيح لنا تعرف شخصيات الأدباء الفنية، عن طريق أخرى كالعشرة الصادقة، ثم كانوا طبيعيين في تعبيرهم، لنا صدق هذه الصلة التي ندعها بين الأدباء وبين ما ينتجون من أساليب؛ يعرف ذلك النقاد الذين عاشروا الأدباء ثم قرأوا آثارهم الأدبية، فيقولون لك: هذا هو فلان كما أعرفه في سلوكه ومزاجه، ومع هذا فلن تنسى أن الأديب حال الكتابة مثلا، يكون خاضعا لبعض ضروب الانفعال أو التفكير فتجده في آثاره أقوى وأروع، وإن لم ينفصل مطلقا عن طبعه الأصيل.

الفصل الثالث

دلالة الأسلوب على الشخصية

نحاول في هذا الفصل أن نتعرف بعض عناصر الشخصية الأدبية من النصوص الكتابية والخطابية، والنظمية؛ ويلاحظ أن عناصر هذه الشخصية لا تظهر جميعها للقارئ إلا إذا درس آثار الأديب أو أكثرها، قراءة نقدية عميقة، ثم وازن بينه فيها وبين غيره، وبخاصة في الفنون المشتركة بينها، ليعرف كيف يختلف الأدباء في تفسير الأشياء والتعبير عما يتصورون، ومن هذا الاختلاف يفرق بين الشخصيات.

وليس من المستطاع أن نورد هنا جملة صالحة لكل أديب ونجعلها معرضًا للدرس والاستنباط، فذلك من عمل القارئ الذي يجد في الكتب والدواوين كفايته، وحسبنا أن نورد في كل فن ثلاثة أمثلة جزئية متوخين أن تتحد في الغرض، ثم نتلمّس فيها ما يميز أصحابها، على أن يكون ذلك مثالا يقاس عليه.

• • •

▪ أولاً : في الشعر[١]

قال أبو تمام يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات:

لئن همَمي أوجَدْنَني في تَقَلُّبي ** مــآلًا لقد أفقدنني منكَ مَوْئلا
وإن رُمْتُ أمرا مُدْبرَ الوجهِ إنني ** لأترك حظاّ فــي فِنَائكَ مُقْبِلا
وإن كنتُ أخطو ساحة المَحل إنني ** لأترُكُ روا من جداك وجَدَوْلا
كــذلك لا يُلقى المسافرُ رحله ** إلى منقــل حتى يُخفّف مَنْقلا
ولا صاحبُ التطواف يعمُرُ منهلا ** وَرَبْعًا إذا لم يُخْلِ ربعا ومنهلا
ومن ذا يدانى أو يُنَائي، وهل فتى ** يُحَلُّ عُرى الترال أو يترَحَّلا؟
فمرني بأَمْرٍ أَحْوَذِيٍّ فإنني ** أري الناس قد أروا وأصبحت مُرْمِلاَ[٢]
فسيَّان عندي صادفوا لِيَ مطعنا ** أعابُ به، أو صادفوا لِيَ مقتلا

وقال البحتري يعاتب الفتح بن خاقان:

يَــريبني الشــيء تــأتى به ** وأكــبرُ قــدرك أن أستــريبا
وأكــرُه أن أتــمادَى علــى ** سبيل اغترارٍ فألقَى شعوبا[٣]
أُكَــذِّبُ ظني بأن قد سخطت ** ومــا كنت أعهد ظني كَذُوبا
ولو لــم تكن ساخطًا لم أكن ** أَذُمُ الــزمان وأشكوا الخطوبا
ولا بــدّ مــن لومة أنتــحي ** عليــك بها مخطئا أو مصيبا
أيصــبح وردي في ساحتيــ ** ك طرفا ومرعايَ مَحْلا جَدِيبا[١]

١- راجع العمدة: جـ٢ ص١٢٩

٢- الأحوذى: الخفيف الحاذق، والمشمر للأمور لها لا يشذ عليه شيء.

٣- شعوب: الموت.

أبيـــعُ الأحـــبة بيع السَّـــوام ** وآســـى عليهم حبيبا حـــبيبا[٢]
ففـــي كل يـــوم لـــنا موقف ** يُشـــقق فيه الـــوَداع الجيوبا
وما كـــان سخطك إلا الفراق ** أفاض الدموع وأشجى القلوبا
ولو كنت أعرف ذنبا لما كا ** ن خالجني الشك في أن أتوبا
ســـأصبر حتى أُلاقى رضاك ** إمـــا بـــعيدا وإمـــا قريـــبا
أراقـــب رأيـــك حتى يصح ** وأنـــظرعطـــفك حـــتى يثوبا[٣]

وقال المتنبي يعاتب سيف الدولة الحمداني:

يا أعـــدل الناس إلا في معاملتي ** فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيـــذها نظرات منـــك صادقة ** أن تحسب الشحم فيمن شحمُهُ ورم
ومـــا انتفاع أخي الدنـــيا بناظره ** إذا استوت عنـــده الأنوار والظلم
أنا الذي نظـــر الأعمى إلى أدبي ** وأسمعـــتْ كلماتـــي من به صمم
أنام ملء جفـــوني عن شواردها ** ويسهر الخلق جرَّاهَا ويختصم[٤]
وجـــاهل مده في جهله ضَحِـــكي ** حـــتى أتته يـــد فـــراسة وفم[٥]
إذا رأيت نيـــوب الليـــث بـــارزة ** فلا تـــظنن أن الليـــث يـــبتسم
الخيل والليـــل والبيـــداء تعرفني **والسيف والرمح والقرطاس والقلم

١- طرق: ما خوضته الإبل.

٢- السوام: الماشية، آسى: أحزن.

٣- يثوب: يعود.

٤- شواردها: نوادرها يريد أشعاره، جراها أي من أجلها، يقول أنام ملء جفوني عن شوارد الشعر لأني أدركها سهلة متى شئت، وغيري من الشعراء، يسهرون ويتخاصمون على ما يتاح لهم منها لعزته عليهم.

٥- يدفراسة: باطشة.

يا مـــن يعز علينـــا أن نفارقـــهم ** وجـــداننا كـــل شيء بعدكم عَدَم
ما كان أخلـــقنا منـــكم بتَـــكْرُمـــة ** لـــو أن أمركم من أمرنا أمَمُ[1]
إن كان ســـركم ما قـــال حاسدنا ** فـــما لجـــرح إذا أرضـــاكم أَلَـــم
وبيننا- لـــو رعيتم ذاك- معرفة ** إن الـــمعارف في أهل النهى ذِمَم
كـــم تـــطلبون لـــنا عيبا فيعجزكم ** ويكره الله مـــا تـــأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي ** أنا الثريا وذان الشيب والهرم[2]
هـــذا عتابـــك إلا أنـــــه مِـــــقة ** قـــد ضـــُمِّنَ الـــد إلا أنه كلم[3]

موضوع القصائد واحد، هو العتاب، والأصل فيه تصوير الوفاء والبقيا على ماضي الصداقة، ثم الأسف والاستنكار لما حدث. لهذا كان موقفًـــا دقيقًا يحتاج إلى براعة، حتى لا يعود هجاء وقطيعـــة، وحتـــى يجمـــع صاحبه بين الوفاء لصديقه، والانتصار لنفسه فلا يفرط في اللوم فيعود خشنًا ثقيلا ولايفرط في الانتصاف فيعود هينًا ذليلا. ومع هذا فقد وقف كل من هؤلاء الثلاثة موقفًا أدبيا يدل على شخصية واضحة ممتازة.

١- فأما أبو تمام فكان واقفًا في منتصف الطريق لم يقرب من صاحبه جدا ولم يبعد عنه كذلك وأخذ يعرض عليه الأمر مستأذنا، راضيا بمـــا يقع، مشيرا إلى إيثاره على سواه وهم كثيـــر، معنيًـــا بنفســـه وبفنـــه يصنعه بدقة وإتقان، وسط عقله بينه وبين صديقه. وإذا كان لابد مـــن ذكر ميزاته الشخصية كما تشير هذه الأبيات، فأبو تمام إنســـان ذكـــي حذر يعتد بقلبه فيبخل به، ويؤمن بعقله فيعتمد عليه، مخلـــص لنفســـه

١- أمم: قريب.

٢- يريد أنهما بعيدان عنه كبعد الشيب والهرم عن الثريا وهي النجم المعروف.

٣- مقة: حب.

وفنه أكثر من عنايته بالناس، يرضى بما يكون، ويقتصد في اتصاله بالحياة، قوي الطبع مؤمن بالقضاء.

٢- وأما أبو عبادة البحتري فقد تقدم إلى صاحبه يكاد يحتضنه، ويلقى بنفسه بين يديه، لولا براءته من الذنوب، واعتزازه بأن الحق في جانبه، قد ملك عليه الأسف والطمع نفسه، فعجب أن يرنّق ورده، صمم على البقاء حيث كان، واثقا من ظهور الحق ومعاودة الصفاء. البحتري، إذًا رقيق الطبع جميل الذوق، لين الجانب، وفي، حسن الظن بالأيام، بارع، شديد الاتصال بالحياة، قريب المثال، طبعي الفن، متفائل ليس في حذر أبي تمام ولا سخط المتنبي.

٣- وأبو الطيب شيء آخر فقد نفر من صاحبه ساخطا متوعدا متعاليا، يرميه بالغفلة والتحيّز، معتزا بنفسه فخورا بخلقه وفنه، مزريا بالرؤساء والشعراء، ولاهم ظهره غير مباليهم إذا لم يحسنوا تقديره، ولم يدركوا مكانته، وإذًا فهو يودعهم نادمين، وسبب ذلك دالة له على سيف الدولة، وعرفانه مكانة نفسه، وهذه السعاية التي خضع لها أمير بنى حمدان، فالمتنبي جافي الطبع، طموح، مغرور، بعيد الأمل، قليل الوسائل، ساخط على الحياة الأحياء، يؤمن بالقوة، ويعزيها، يثق بشعره إلى أبعد حد، ولا يرى نفسه دون الملوك ولا من طراز الناس.

ولعل البحتري أرق الثلاثة وأرضاهم، والمتنبي أجفاهم وأسخطهم، وأبو تمام أوسطهم وأشدهم حذرا واحتياطا.

وقد سئل الشريف الرضي عنهم فقال: "أما أبو تمام فخطيب منبر، وأما البحتري فواصف جؤذر، وأما المتنبي فقائد عسكر"[١].

١- المثل السائر ص٣٥١ والجؤذر ولد البقر الوحشية مثل به ظرف شخصيته.

▪ ثانياً : الخطابة

خطب علي بن أبي طالب في استنفار الناس إلى أهل الشام[١]:

"أفّ لكم! لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضًا وبالذل عن العز خلفا؟ إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ومن الذهول في سكرة، يرتج عليكم حواري فتعمهون[٢] فكان قلوبكم مألوسة[٣]، فأنتم لا تعقلون، ما أنتم لي ثقة سَجيس الليالي[٤]، ولا زوافر[٥] عز يفتقر إليكم، وما أنتم إلا كإبل ضلُ رعاتها، فكلما جُمِعت من جانب انتشرت من آخر، لبئس، لعمر الله سعر[٦] نار الحرب أنتم، تكادون ولا تكيدون، وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون، لا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون.

أيها الناس، إن لي عليكم حقا، ولكم علي حق فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم[٧]، وتعليمكم، كي لا تجهلوا. وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصحة في المشهد والمغيب، والإجابة عندما أدعوكم، والطاعة حين آمركم".

١- راجع المنتخب جـ١، ص٨٤-٨٨.

٢- يرتج: يغلق فلا تهتدون لفهمه.

٣- مألوسة: مختلطة مضطربة.

٤- طول الليالي أي أبدا.

٥- جمع زافرة، عشيرة الرجل أو كن البناء.

٦- الوقود.

٧- الخراج وما يحويه بيت المال.

وخطب معاوية حين قدم المدينة عام الجماعة[١]، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

"أما بعد، فإني والله ما وليتها[٢] بمحبة عمتها منكم، ولا مسرة بولايتي عليكم، ولكني جالدتكم بسيفي[٣] هذا مجالدة، ولقد رُضْتُ[٤] لكم نفسي على عمل ابن أبى قحافة[٥]، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفارا شديدا، وأردتها على سُنَيَّاتِ عثمان فأبت على، فسكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإني خيْرٌ لكم ولاية والله ما أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يشتفي[٦] به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذني[٧] وتحت قدمي، وإن لم تجدني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه، فإن السيل إذا جاء أثرى[٨]، وإن قل أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة".

١- هو عام ٤١ وفيه صالح معاوية الحسن بن على، على أن يبقى معاوية خليفة.

٢- أي الخسلافة.

٣- أي ضاربتكم به.

٤- ذللت.

٥- يعنى أبا بكر الصديق.

٦- يذهب غيظه.

٧- خلف أذني أي أطرحه ولا أباليه.

٨- أثرى أغنى.

ومن خطبة زياد بالبصرة:

"أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء[١]، والضلالة العمياء[٢]، والغيَّ الموفيَ بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الألم لأهل معصيته في الزمن السرمدي[٣] الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا[٤] وسدت مسامعه الشهوات[٥] واختار الفانية على الباقية؟ ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه: من تركم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله... إني رأيت آخر هذا الأمر[٦] لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وأني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى[٧]، والمقيم بالظاعن[٨]، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انجَ سعد فقد هلك سعيد[٩] أو تستقيم قناتكم[١] ... أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة،

١- الشديدة.

٢- الشديدة المهلكة.

٣- الدائم

٤- جعلته لا يبصر شيئا ولا يعني إلا بها.

٥- سار أسير شهواته

٦- الحكومية الإسلامية

٧- أعاقب السيد بذنب خادمه

٨- الظاعن: المسافر

٩- مثل يضرب في تتابع الشر

وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء[٢] الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيها أحببنا، ولكم علينا العدل فيها ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل، ولا حابسا عطاء، ولا رزقا عن إبانة، ولا مجمرا[٣] لكم بعثا، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم ولا تدركوا له حاجتكم؛ مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم، أسال الله أن يعين كلا على كل" .

هذه الخطب الثلاثة تدور حول الحكومة الإسلامية وإقرارها بعد الثورة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفان، والنزاع بين علي ومعاوية، ونشأة الأحزاب السياسية وعناية معاوية وأعوانه بإقرار الحكومة في البيت الأموي.

١. فأما علي فساخط على العراقيين، يائس من صلاحهم، يرميهم بالجبن والهوان لا تجمعهم كلمة، ولا يغضبون لكرامة، ومع ذلك تراه يبين لهم هذه الصلة التي تربطه بهم. وهذه الخطبة صورة لكثير من آثاره الخطابية التي ألقاها إبان النزاع على الخلافة وهي تدل على

١- القناة الرمح أو عود يشبهه والمراد أن يستقيموا في سلوككم

٢- الفيء: أموال حرج

٣- تجمير الجند إبقاؤهم عملهم وحسبهم في أرض العدو

شخصية علي، فقد كان شجاعًا، قوي البأس، ذكي الفؤاد، واسع العلم، شديد الإيمان، متحرجا في الدين، حدبا على المسلمين، حزينا على حقه المسلوب صريحا في القول، غلبت نزعته الدينية على كياسته السياسية حتى غلب على أمره بعكس معاوية، وكان مثله الأعلى قائما على الشجاعة والتحرج في الدين مع دالة على المسلمين لمكانته من الرسول وماضيه في خدمة الإسلام، لم يظفر من العراقيين بشعب يعتمد عليه ويخلص له، فعاش مجاهدًا حزينًا ومات دون تحقيق مأربه.

٢. وأما معاوية، فقد كلم أهل المدينة بلغة المنتصر الشامت، الذي يرميهم بعدم الكفاية لحسن سيرة الحكام فيهم لأنهم تغيروا وفسدت نفوسهم فلا بد من سياسة جديدة تلائم نفسيتهم الجديدة، وهي تقوم على الحيلولة بينهم وبين السياسة العليا ورضاهم بالواقع، وحلمه على سفه الكلام، واعتداده بالسلوك العملي. فهو شخصية سياسية حليمة، عملية مرنة، تصطنع الأناة، وتبرر الوسائل في سبيل الغايات لم يتشبث بتحرج على سرعة غضبه، اعتمد على قوة عقله أكثر من قلبه، تلمسه حريرا ولكنك تلبسه شوكا وقتادا. هذه هي الشخصية السياسية المرنة التي غلبت شخصية على المتحرجة فكانت النتيجة انتصار البراعة الأموية على الشجاعة الهاشمية.

٣. ولكن زيادًا رفع في وجوه البصريين - والعراقيين جميعا - سيفا صارما، ولقيهم بأيد خشنة، وأقام عليهم الحجة بما عملوا من آثام ثم رسم الخطة التي يحكم بها مقلدا عمر بن الخطاب ومتجاوزه في الشدة إذ أخذ بالشبهة وفرض النظام فرضا فلا مفر للناس من اعتناقه، وإن

تهاونوا فالسيف أو الباطل يخوضه ليضل إلى الحق. زياد – كهتلر وموسوليني ومصطفى كمال– حازم الرأي، صارم العزيمة، ذكي عمل، إذا اقتنع بالرأي فرضه، حاد الذكاء واللسان، منظم التفكير حسن التدبير، هو وسط بين عمر بن الخطاب والحجاج في سياسته، مخلص لمصالح الدولة، غضب من الناس وألزمهم ما شاء ولكن عليًا سخط عليهم وتحاشاهم فكان زياد أصلح حاكم للعراقيين.

ويمكن تلخيص ذلك في أن عليًا شجاع ساخط، ومعاوية سياسي بارع، وزيادًا حاكم حازم.

▪ ثالثاً : الكتابة

للجاحظ[١] رسالة التربيع والتدوير التي كتبها إلى أحمد بن عبد الوهاب:

١. كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول. كان مربعا وتحسبه لسعة جفرته[٢] واستفاضة خاصرته مدورا، وكان جعد[٣] الأطراف، قصير الأصابع، وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة، وأنه عتيق[٤] الوجه أخمص[٥] البطن: معتدل القامة، تام العظم، وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد[٦]، رفيع العماد، عادى القامة، عظيم الهامة، قد أعطى البسطة في الجسم والسعة في العلم، وكان كبير السن متقادم المبلاد، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد، وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها. وتكلفه للإبانة عنها على قدر رغبته فيها. وكان كثير الاعتراض. لهجا[٧] بالمراء. شديد

١- رسائل الجاحظ للسندوبي ص١٨٧

٢- وسطه

٣- ملتو

٤- جميل

٥- ضامر فارغ

٦- باطن الفخذ

٧- ملازما له

الخلاف. كلفا بالمجاذبة متتابعا في العنود مؤثرا للمغالبة. مع إضلال الحجة. والجهل بموضع الشبهة. والخطرفة عند قصر الزاد. والعجز عند التوقف. والمحاكمة مع الجهل بثمرة المراء. ومغبة فساد القلوب. ونكد الخلاف. وما في الخوض من اللغو الداعي إلى السهو. وما في المعاندة من الإثم الداعي إلى النار. وما في المجاذبة من النكد. وما في المغالبة من فقدان الصواب. وكان قليل السماع غمرا[١]. وصحفيا غفلا[٢] لا ينطق عن فكر. ويثق بأول خاطر. ولا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار المحق. يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها. ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب. وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب.

أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك، قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة، وضخم الهامة، وعلى حور العين، وجودة القد، وعلى طبي الأحدوثة، والصنعة المشكورة، وأن هذه الأمور هي من خصائصك التي بها تكلف، ومعانيك التي بها تلهج، وإنما يحسد أبقاك الله، المرء شقيقه في النسب، وشقيقه في الصناعة، ونظيره في الجوار على طارف[٣] قدره أو تالد حظه أو على كرم في أصل تركيبه ومجارى إعراقه، وأنت تزعم أن هذه المعاني خالصة لك، مقصورة عليك، وأنها لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك، وأن لك الكل، وللناس البعض، وأن لك الصافي، ولهم المشوب. هذا

١- عديم التجارب

٢- مجرد من المزايا والصحفي من أخذ علمه من الصحف ولم يلق العلماء

٣- الحديث وضده التليد

سوى الغريب الذي لا نعرفه، والبديع الذي لا نبلغه، فما هذا الغيظ الذي أنضجك، وما هذا الحسد الذي أكمدك، وما هذا الإطراق الذي قد اعتراك، وما هذا الهم الذي قد أضناك؟".

• • •

٢. وكتب بديع الزمان[١] الهمذاني إلى أبي الطيب في شأن شخص متغير عليه:

"أنا - أطال الله بقاء الشيخ الإمام - بصير بأبناء الذنوب وأولاد الدروب[٢] أعرفهم بشامة، وأثبتهم بعَلاَمَةٍ، والعلامة بيني وبينهم أن يفسدوا الصنيع على صانعه، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويرموا في الحكاية سهم الشكاية، ويجيلوا في الشكاية قدح النكاية[٣]، ثم لا يرون النكاية إلا السعاية وإن أعوزهم الصدق مالوا إلى الكذب، حلم لهم الجد عرضوا باللعب، ومن علاماتهم قبح مقاماتهم، وإيراد ظلاماتهم موارد النصيحة لكبرائهم، ومن آياتهم كثرة جناياتهم على الفضلاء، وشدة حنقهم على من لم يخطرهم بباله، ولا يحطبهم في حباله[٤]، فإذا انضاف إلى ضيق أكنافهم سعة آنافهم[٥] وإلى قبح مقاماتهم صغر قاملتهم، وإلى خبث محضرهم خبث منظرهم، وإلى صعر خدودهم، غلظ

١- رسائل بديع الزمان ص١٠٦ طبعة بيروت

٢- اللقطاء

٣- أي أنهم حين يشكون ظلما يدسون لغيرهم

٤- أي لم ينتصر لهم ويحميهم

٥- مطمع مع العجز

جلودهم[١]، وإلى لين فقاحهم، غلظ أو لواحهم، فذلك من أعلى القوم طبقة في السفال، وأبعدهم غاية في النكال، والذي فاوضني القاضي في معناه جلى في باب ما حكاه، لا يجمع هذه الخصال وقيادة، وينظم هذه الأوصاف وزيادة.

فلم يبعد الشيخ عن مثله أن يكذب؟ الطهارة أصله، أم نجابة نسله، أم خشانة أهله، أم رجاحة عقله، أم ملاحة شكله، أم غزارة فضله؟

ولم يجوز على ما حكاه؟ ألم يؤوني طريدا، ويلمني حصيدا[٢]، ويؤنسني وحيدا، ويصطنعني[٣] مبديا ومعيدا، وكان بقدري أنه رآني أفعل شنيعا، أو سمع أنى ألفظ بكسر لم يأل[٤] في تحسين أمري فعل الوالد بولده جهته، ونظر المولى لصنيعه أقرب.

والآن إذ عاد الأمر إلى العتاب فهلمّ إلى الحساب؛ إن كنت أخللت بطرق من طاعتي من جهة فقد نقصني ما عوّدني وجوه. وذلك أنه كان لا يتجاسر أحد على أن يفريني[٥] عنده، فقد صار يقريني عنده ويبرى جلده، وكان يقوم قناتي[٦] فقد صار يُحبط حسناتي، وكان يثمر مالي فقد صار يبطل آمالي، وكان يحشد[٧] لأمري احتشاده لأمره، فقد نبذت

١- التكبر مع الهون

٢- حصيد أي محصود مهمل

٣- يحسن إلى

٤- لم يقصر

٥- يفريني يغتا بني ويجرحني

٦- يصلح من شأني ويستر عيوبي

٧- يحشد يجمع أي كان يعني بشئوني

وراء ظهره، وقد كان يحتمل فقد صار يتحامل، وكان لا يضابقني في الألوف من الدراهم والدنانير، فقد ضايقني في الشعير في حمل بعير. والعبودية ذل اليهودية وذل المردويّة[١] والإدلال مع الإذلال[٢]. والطاعة مع الإفضال[٣].

فليستأنف الشيخ حالي المولى ليستأنف حال العبد[٤]. والله من وراء التسديد[٥] ونعم الوكيل".

• • •

٣. ومن فصل كتبه ابن خلدون[٦]-في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب- وكان في ذلك متأثرا بعصبية بربرية أو تركية سلبت الملك من العرب. وبجالية من رب المغرب الجاهلين:

"والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذودا، لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران، ومناقضة له، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له، فالحجر مثلا إنما،

١- المردوية كون الإنسان أمرد ناشئا

٢- أي لا يدل على إلا من لأذلني بالإنعام على

٣- أي أطيع من أفضل على

٤- ليعد النظر في حال صديقة حتى ينظر في حال عبده هذا

٥- التقويم والتوفيق

٦- المقدمة ص١٦٥ مطبعة التقدم

حاجتهم إليه لنصبه أثافي[١] للقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك، والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعموا به خيامهم، ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربوا السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم مناعية للبناء الذي هو أصل العمران.

هذا في حالهم على العموم، وأيضا، فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وإن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه، فإذا ما تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران. وأيضا، فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم. لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر، والثمن.

والأعمال- كما سنذكره- هي المكاسب وحقيقتها وإذا فسدت الأعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الأيدي عن العمل وابذعر السكان[٢]. وفسد العمران وأيضا فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض. إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا أو مغرما فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أمورهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد وزجر المعترض لها بل يكون ذلك زائدا فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض فتبق الرعايا في مملكتهم كأنها فوضى، وحكم الفوضى مهلكة للبشر، مفسدة

١- جمع أثقية: حجر يوضع عليه القدر لطهي الطعام

٢- تفرقوا

لعمران. وأيضا، فهم متنافسون في الرياسة، وقبل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياة فيتعدد الحكام منهم والأمراء وتحن تختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام فيسد العمران وينتقص".

• • •

هذه فصول يجمعها موضوع واحد هو الإنكار والهجاء، ومع ذلك فهي دالة على كتاب ثلاثة متمايزين.

١. الجاحظ فقد سلك في رسالته طريق التصوير المضحك، والسخرية المرة، معتمدا على المقابلات وعرض المتناقضات، يقلب صاحبه بين يديه، ويعبث به قبل أن يقتله، فإذا به شكل غريب، وخلق عجيب، وغرور وحسد، وجهل ولجاجة، مع حسن القامة وعظم الهامة، وحور العين وطيب الأحدوثة. ثم يلح فيها يتناول، ويبالغ في سرد النكتة، ويدس السم في الدسم حتى تركه صورة أو قصة تضحك القارئين وتعجب المتأدبين على مر العصور.

فالجاحظ داهية، ماكر عابث، ساحر. يغيظ عدوه وهو يضحك ملء شدقيه. ويقتله وهو آمن مستريح. دقيق الملاحظة. واسع النظرة بارع في الأسلوب طيعه. خبير يدخائل النفوس. لا يبالي ما ضحي به في سبيل فنه ومآربه. متنوع الثقافة.

فيلسوف الحياة يهزأ بها وبالناس ومذاهبهم وعصبياتهم يتأنى فيها يتناول حتى لا يترك لغيره مجالا لا يتحرج ولا يتشدد. خبر الحياة من جميع نواحها. فكان صورتها المخلوقة ولغتها الناطقة.

٢. وأما البديع فقد هاجم خصمه هجوماً مباشرا، ونال منه بالسب البذيء إذ رماه بالكذب والجمود، والسفاهة، وسوء الخلق ، وضعة الأصل وضعف العقل، مع سخرية قليلة بأسلوب إنكاري عنيف.

وأخذ يوازن بين حاليه: الأولى أيام كان راضيا، والثانية بعد أن صار ساخطا، كل ذلك وهو غاضب عابس الوجه حاقد القلب ثائر العاطفة ليس فيه هدوء الجاحظ ومرونته وسعة صدره وبراعة حيلته، وسلامة أسلوبه.

فالبديع، إذًا، ذكي، صريح، قوي الطبع، عنيف، هجاء حريص على المال، ضيف الصدر، شديد الحس، ينصرف ذكاؤه إلى التصوير الفني، وذكاء الجاحظ منصرف إلى الإحاطة النفسية.

كلاهما يردد... ولكن ترديد الجاحظ استكمال وتجديد، وترديد البديع تكرار وتصوير. وليس البديع في دهاء الجاحظ ومكره وسخريته، وإن كانت براعته الفنية ممتازة بجزالة العبارة، وقوة التصوير.

وأما ابن خلدون فقد ذهب في مهاجمة العرب مذهب العلماء، والناطقة، إذ اعتمد على التقرير، وإقامة الدعوى، وتأييدها بالبراهين، مستعينا في ذلك بما شهد من أحداث، وعرف من نظريات، في أسلوب عادي بسيط وموجدة متوارية مكبونة لا تكاد تظهر، لا يعمد إلى التكرير والتهويل، فهو إذا، رجل عالم وقور، يلقى الحياة بعقله الفاهم، هادئ،

له عقله الرياضي المنتظم، بأسلوب رتيب، لا يتنوع، كأنه قياس مقـــرر لا يسب خصمه، وإن نال منه بما هو شر من السباب، لم يتـــوافر لـــه دهاء الجاحظ وبراعته. ولا عنف البديع وجزالتـــه، يســـتملي الحيـــاة ويكتب، وكلاهما يتصور الحياة ويسطر، وهو عالم، وهما أديبان.

▪ رابعاً : التأليف

وربما لم تكن هناك حاجة إلى الكلام في هذه النقطة بعد ما سبق من أن الأسلوب العلمي - ومنه التأليف - لا يعد معرضًا قويًا لظهور الشخصية كما هو الشأن في الأسلوب الأدبي، إذ العلم يرتكز على العقل أكثر من سواه، ومظهر العاطفة فيه ثانوي أو شكلي لا غير، والعقل؛ مهما يتفاوت الناس في قوته وانتظام تفكيره، لا تبلغ أشكاله، وألوانه، مبلغ العاطفة، التي تعرض علينا الأمزجة، والأخلاق، والأخيلة، والأذواق، والمذاهب الاجتماعية والأدبية وغيرها. على أن الأساليب العلمية الخالصة لا تكون الفروق اللفظية فيها كثيرة، ولا قوية. وربما كان خضوعها لمناهج البحث وموضوعاته أشد وأوضح.

ومع ذلك فليس ما يمنع - اعتمادا على اختلاف مناهج البحث العلمي. وعلى مقدار تفرد العقل في التأليف. وأثر ذلك في العبارة - أن نشير هنا إلى مظاهر اختلاف الشخصيات في الكتب العلمية أيضا. ولكن في إيجاز.

طه حسين في "الأدب الجاهلي". وأحمد أمين في "فجر الإسلام وضحاه" ومصطفى عبد الرزاق في "البهاء زهير". ثلاثة مؤلفون، وزملاء علميون. تجمعهم رابطة الثقافة العالية. والقيام على دعم وتنظيم طرائق البحث العلمي في هذه البلاد. ولكنهم مع ذلك كله يتغايرون فيما سلكوه من مناهج. وفيما تحرّوا من غاية. وفيما سطروا من أساليب.

طه حسين يضع مراجعه خلفه، ومصطفى عبد الرزاق يضعها أمامه، وأحمد أمين يضعها بجانبه.

طه حسين يدعو إلى المناهج الحديثة، ويتحدّى المحافظين مستفزا ثائرا، وأحمد أمين يطبق هذه المناهج، ويقنعه المحافظين هادئا معتدلا، ومصطفى عبد الرزاق يختاره من هذه المناهج، محتاطا محبورا رزينا.

طه حسين يعرض نفسه فقط، ويكتب بأسلوبه القوي، وأحمد أمين يعرض نفسه وغيره، ويكتب بأسلوبه الواضح، ومصطفى عبد الرزاق يعرض والعلماء بأسلوبه الجميل.

وإذا أردت أن تعرف ذلك فارجع إلى هذه الكتب التي ذكرت تجد طه حسين داعيا، جريئا، ومتحديا، يعرض نظرياته وآرائه في سرعة كأنه يريد من الزمن الإسراع، ويفرض على بنيه الفروض، يشير إلى المراجع جملة، كأنها معروفة ومقروءة، ثم يبني ما شاء من النتائج في ثقة وبراعة لم تسلم من السخرية والفكاهة، وأسلوبه هنا يغلب عليه التقرير العلمي، وأن لم يسلم من الصفات الأدبية المعروفة.

وأحمد أمين هادئ، موضوعي، مخلص للحقائق، يساير الزمن، ويعرض مصادره وشواهده، مستشيرا ناقدا، ثم يستعين بها أمامك وينتهي إلى نتائجه في قصد بأسلوبه العلمي الخالص.

ومصطفى عبد الرزاق يجمع الوثائق في أمانة ونظام، ويعرضها عليك منسقة في سلك منطقي، وذوق أدبي، تتحدث بنفسها عن حقيقتها وتنتهي إلى نتائجها، دون أن يلح في ظهور، فكأن الحياء الجميل، والتواضع الجم والحيطة الشديدة قد غلبت عليه فقدم الماضين أمامه كما كانوا، وذلك في أسلوب صاف، دقيق جميل.

وارجع إلى القدماء لترى "عبد القاهر الجرجاني" في كتابيه "دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة" العالم الأديب، الواثق بنفسه، والمعتز بمذاهبه البلاغية، و "ابن الأثير" في "المثل السائر" الأديب المغرور، الفخور بفنه دائمًا، والمبرد الجيل ذا الذوق الأدبي الجزل...

وهكذا تجد الشخصيات مظاهرها فيما يترك الأدباء من آثار.

الفصل الرابع

أثر الشخصية في اختلاف الأساليب

وأما في هذا الفصل فالمراد بيان آثار هذه الشخصية في الأسلوب. ومعنى ذلك أننا نفرض معرفتنا شخصيات جماعة من الأدباء كتابا وشعراء وخطباء، ثم نلتمس مظاهر هذه الميزات الفردية فيما ينشئون من نصوص أدبيّة. ونقصر الكلام في هذا على نواح ثلاثة:

- الأولي: من حيث الألفاظ حين يختلف الأدباء في الألفاظ والجمل، والفقر والعبارات.
- الثانية: من حيث المعاني، كالمطابقة بين اللفظ والمعنى، أو ترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى، وعكس ذلك.
- الثالثة: من حيث الصنعة يعمد الأدباء إلى الأسلوب الطبعي أو المصنوع صنعة بديعيه، قوامها، السجع، والجناس، والمطابقة، ونحو ذلك.

وسنحرص هنا على الإيجاز مكتفين بالإشارة إلى بعض الأمثلة ومحيلين على ما سبق ذكره في الفصول السابقة.

▪ الناحية الأولى

وتتناول الاختلاف في الألفاظ، والجمل، والفقرات، والعبارات.
والمراد بالألفاظ الكلمات المفردة التي تتألف منها الجمل، وهي أسماء، وأفعال، وحروف ولكنها مع ذلك ذات خواص متباينة، ، كأن تكون دقيقة محدودة أو مبهمة مشتركة، اصطلاحية علمية أو فنية عامة، رقيقة أو خشنة، عامية أو فصحى، موسيقية رشيقة،أو عادية جافة، لونية أو صوتية إلى نحو ذلك.

وتتألف الجملة من الألفاظ تؤدي فكرة واحدة تامة، وتكون الجملة اسمية أو فعلية، خبرية أو إنشائية، طويلة أو قصيرة، جزلة أو رقيقة، تامة العناصر أو مختصرة، مثبتة أو منفية، أصلية أو فرعية، وغير ذلك.

والفقرة عدة جمل تكون فصلاً من المقالة، وهي تقوم على الصلات بين الجمل، وتنوعها، وربطها معا، ففيها الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، وفيها الرابطة اللفظية والمعوية التي تصلها بما قبلها وما بعدها. وتكون بسيطة سهلة أو معقدة مضطربة؛ وهي تختلف بحسب موقعها من الموضوع مقدمة أو نتيجة أو غرضا.

وأما العبارة فهي العنصر اللفظي من الأسلوب، أو هي هذا الأسلوب اللفظي الذي يقابل الأسلوب العقلي والصوري، والعبارات تقوم على هذه العناصر المذكورة قبلا ثم تتأثر بمنهج البحث وبالموضوع وبمزاج الكاتب، وذوقه وطبيعته كلها، والأدباء يختلفون في ذلك كله تبعًا

لطبائعهم وأذواقهم وثقاتهم وبيئاتهم فترى الموضوع الواحد من الفن الأدبي، يتوارد عليه أصحابه فإذا كل طراز بعينه في اختيار الكلمات، وصوغ التراكيب والعبارات التي تمثل نفسه وخلقه ودرجة انفعاله.

يقول ابن الأثير[١]: "اعلم أن الألفاظ تجري من السمع مجري الأشخاص من البصر فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج، ولهذا نرى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي".

وهذا القانون طبعي في الخطابة والكتابة إذا كانت شخصية الأديب تتخذ من هذه الناصر اللفظية وسيلة للتعبير عن طبيعتها وعرض مزاياها.

(١) فإذا رجعت[٢] إلى هؤلاء الشعراء الثلاثة "أبي تمام، والبحتري، والمتنبي" وهو يعتبون. تبين لك: رقة البحتري، وجزالة أبي تمام، وقوة المتنبي في الألفاظ المفردة، ثم سهولة البحتري وتدقيق أبي تمام وصرامة المتنبي في الجمل، والبحتري بعد ذلك سلس العبارة عذب الموسيقي، له ديباجة الحرير واطراد الماء الجاري. وأبو تمام محكم العبارة. مركب الموسيقي بطيء متئد يتقن الصنعة، ويؤلف التراكيب بحكم العقل، وأما المتنبي فعبارته كخطته في الحياة سريعة موجزة عجلي، لا تبالي بما قد تتعثر فيه من أخطاء وتعقيد، فاضطراب

١- المثل السائر ص٦٩

٢- راجع الفصل الثالث من هذا الباب

العبارات عند أبي تمام نتيجة صنعته المقصودة، وهو عند المتنبي ثمرة سرعته الشديدة وهجوما العنيف أو-كما يرى بعض النقاد- مفارقات محبوبة.

ومع ذلك فاقرأ هذه الأمثلة للبحتري:

ذاكَ وَادِي الأراكِ فاحبس قليلا ** مقصرا من صبابة أو مُطيلا
قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا ** أو معينا أو عاذرا أو عذولا
إن بين الكثيب فالجزع فالآ ** رام ربعا لآل هند محيلا
لم يكن يومنا طويلا بنَعمَا ** ن ولكن كان البكاء طويلا

تجد العبارات متدفقة متواصلة، تمر كالنسيم العليل أو الألحان العذبة، لا توقف فيها، ولا تكلف، لأن البحتري يستلهم طبعه السمح ونفسه الراضية وعاطفته الرقيقة الصادقة، وذوقه الفني الجميل[1].

ولأبي تمام:

لو حار مرتاد المنية لم يجد ** إلا الفراق على النفوس دليلا
قالوا: الرحيل، فما شككت بأنها ** نفسي من الدنيا تريد رحيلا
الصبر أجمل غير أن تلدُّدًا ** في الحب أحرى أن يكون جميلا
أتظنني أجد السبيل إلى العزا؟ ** وجد الحمام إذًا إليَّ سبيلا
رد الجموح الصعب اسهل مطلبا ** من رد دمع قد أصاب مسيلا
ذكرتكم الأنواء ذكرى بعضكم ** فبكت عليكم بكرة وأصيلا
إني تأملت النوى فوجدتها ** سيفا على أهل الهوى مسلولا

١- راجع في الفصل السابق ما كتب عن شخصية البحتري

ترى آثار عقله وصنعته وحذره وأناته وذكائه[١]، في التنسيق المنطقي وإحكام التركيب شرطا، وجزاء، واستثناء، وترتيبا واستنباطا، فعبارته كالموسيقي المقسمة المتئدة، أو الماء الجاري بين الصخور، يتمهل ليظفر بالمنافذ والمسارب.

وللمتنبي:

وللسّرِّ مني موضع لا يناله ** نديم ولا يفضي إليه شراب
وللخود مني ساعة ثم بيننا ** فلاة إلى غير اللقاء تُجاب[٢]
وما العشق إلا غرة وطماعة ** يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية ** وغير بناني للزجاج ركاب[٣]
وتركنا لأطراف القنا كلَّ شهوة ** فليس لنا إلا بهن لعاب[٤]

فهذه الشخصية العجلة العنيفة، الطامحة المتعالية[٥] قد جعلت الكلمات قوية متحركةً، والتراكيب موجزة منوعة والعبارة منساقة بسرعة كالريح العاصف أو الموسيقي الصاخبة، أو السيل يجرف ما يصادفه لا يبالي كيف تكون النتيجة. فالشعر عند البحتري في فن التصوير والتعبير، وعند أبي تمام فن التفكير والتصوير والتعبير، وعند المتنبي فن الحكمة، والمراسيم التي تلقى قضايا حاسمة لا مرد لها.

١- راجع ما كتب عن شخصية أبي تمام في الفصل الباسق

٢- الخود: الفتاة الناعمة، والفلاة الصحراء الواسعة. تجاب تقطع

٣- الرمي ما يرى بالسهام. والبنان أطرف الأصابع. والزجاج كؤوس الخمر

٤- القنا عيدان الرماح، المفرد قناة، واللعاب الملاعبة

٥- اقرأ عن شخصية المتنبي في الفصل السابق

وتجد نحو ذلك بين جرير والفرزدق، وبين حافظ وشوقي، والعقاد والمازني ومطران والجارم؛ لكل ميزاته الشخصية فيها يقول.

• • •

(٢) وهؤلاء الكتاب الذين أشرنا إلى صفاتهم الشخصية في الفصل الماضي الجاحظ، والبديع، وابن خلدون، وأوردنا شواهد من آثارهم يفترقون في التعبير كذلك.

فالجاحظ يتحرى دقة الألفاظ ليحسن الوصف، ويردّد الجمل أو بعض عناصرها ليكمل معانيه ويؤكدها، ويلجأ إلى الازدواج والتقسيم الموسيقي دون التزام السجع، ويستخدم الاعتراض داعيا أو محترسا ويطنب ملحا وراء الأفكار والصور، ويكثر من المقابلة والتقسيم.

ولكن البديع يتخير جزل الألفاظ والتراكيب، ويكثر من الصور البيانية التي هي تكرار صوري للفكرة الواحدة، يكثر من البديع طباقا وجناسا، يقتبس لغة الشعر ليوشي بها نثره، سجعه قصير، وعباراته جزلة إيجازية قيست بعبارة الجاحظ السمحة المبسوطة، فالرجلان يمثلان مدرستين مختلفين في التفكير والتصوير والتعبير.

وابن خلدون دقيق الكلمات بسيط العبارات تشيع فيها المصطلحات العلمية والفنية، رتيب الأسلوب لا ينوعه، لا يسلم من الركاكة والجفاء، لا يتراءى فيه الجمال والبراعة، معني بالمعني أكثر من اللفظ، نزعته تقريرية، فهو من طراز آخر.

وإذا كان لا بد من اختصار ذلك كله فالجاحظ في أسلوبه جميل، والبديع قوي، وابن خلدون واضح.

وإذا ذهبت تتبين شواهد ذلك بين المعاصرين من الكتاب وجدت أشكالا شتي من العبارات التي تمثل الشخصيات، فالمازني سهل جميل، والعقاد جزل عنيف، وهيكل واضح هادي، والبشري دقيق اجتماعي، وهكذا لكل سمة عليه غالبة.

(٣) أما الخطباء فليسوا أقل من زملائهم في هذه الناحية، فهذا معاوية ابن أبي سفيان الداهية الحليم، والسياسي البارع[١] تقرأ خطبته فتلقي ألفاظا سهلة وجملا كأنها رسالة مكتوبة، وعبارات منطقية مطردة كأنها عتاب؛ أو خطة للحكم يعرضها رئيس الحكومة على النواب، لا إغراب ولا عنف جعلها المنطق الإقناعي، والتحبب العاطفي الحذر أشبه بعقد مصالحة أو قصيدة عتاب، وزياد ابن أبي سفيان الحاكم الحازم، والقوي الصارم[٢] يعتمد على نوعين من التأثير: المعنوي واللفظي؛ فالكلمات جزلة قوية، والسجع والمبالغة وقوة التصوير شائعة في خطبته البتراء "أما بعد فان الجهالة الجهلاء،العمياء، والغيّ الموفى بأهله على النار...أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات؟"، جملة قصيرة عنيفة متنوعة "لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف؛ فإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه... فمن أغرق قوما أغرقناه، ومن أحرقَ قومًا أحرقناه، ومَن نقب بيتا تقينا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفناه فيه حيا" وعبارته؛ على العموم حسنه التقسيم، والتنويع، قوية التأثير، سريعة الحركة، وهي كشعر المتنبي- أوامر صارمة أو مراسيم ملكية.

١- راجع خطبته وما كتب عنه في الفصل السابق

٢- اقرأ ما كتب عنه في الفصل الماضي

وأما الحجاج بن يوسف الثقفي فقد أربى على زياد، وتجاوز، وتجوز العنف إلى التهديد والوعيد وإلى الرغبة في الدماء؛ وتمنى المصارع والمهالك، كان الحجاج جاهليًا، جبارًا، لا يراعى حرمة دينية ولا يؤمن إلا بالقوة والتخويف، يقوم الحكم عنده على السيف، ويفترق عن زياد بطغيانه الشديد على الرعية، مع ضعفه أمام الخليفة عبد الملك، ولكن زيادا مع عنفه في الحكم استطاع أن يعرف لنفسه كرامتها مع معاوية. وعلى أية حال فإن خطبة الحجاج حين ولى العراق[1] تعد معرضا لصفاته المذكورة. فالألفاظ ضخمة كالصخور. والجمل مقتضية صاخبة. والتصوير يمثل الهلاك والبلاء. والعبارة أقوي من إعلان الحرب والتأثير يعتمد فوق ذلك على اقتباس الأشعار وآيات الإنذار الإرهابية:

أنا ابن جلا وطلاّع الثنـــايا ** متي أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة إني لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحي".

ثم قال بعد أبيات:

قد شمرت عن ساقها فشدوا ** وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتـــر عـــرد ** مثل ذراع البكر أو أشـــد

لابُدَّ مما ليس منه بُدُّ

ثم يقول:

"والله لأحز منكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبـــل فـــإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون".

١- اقرأها في المنتخب، جـــ٢، ص١٧١

كان سعد زغلول خطيبا كامل الأداة، قوي التأثير، وبارع الأسلوب يجمع بين قوة الإقناع. وبلاغ الأداء، ومصطفي النحاس تغلب عليه في خطابته النزعة التقريرية الوصفية مع صحة المنطق ووضوح العبارة، ومكرم عبيد، يعتمد في التأثير على التصوير البياني، والخيال الشعري، فإن حاول الإقناع عاد مقررا به أو كاتبا أديبا.

▪ الناحية الثانية

وهناك مظهر ثان آثار الشخصية في الأسلوب، وهو مقدار الصلة بين اللفظ والمعني، فمن الأدباء من يطابق بين اللفظ والمعني. ومنهم من يعني بأحدهما أكثر من الآخر.

(١) والأصل الذي يتّصل به هذا المظهر هو أن الغرض من التعبير والبيان إظهار ا في النفسي من الحقائق والعواطف والأخيلة، وإيصالها إلى القراء والسامعين، ووسيلة ذلك هي الأسلوب –أو العبارات اللفظية– إذ كانت غايته الإفهام أو التأثير أو هما. ومعني هذا أن الواجب على الأسلوب تحقيق هذه الغاية تحقيقا كاملا، فلا بد أن يكون صادق الأداء، مساويا للمعني المراد، لا يزيد ولا ينقص وقبل ذلك يكون الأديب المنشئ فاهما ما يريد أداءه، صادق الشعور به[1] وعنده

١– العمدة، جـ١، ص٢٨

الوسائل اللغوية والتصويرية اللازمة، فإذا ما توافر له ذلك استطاع البليغ أن يحقق المطابقة بين اللفظ والمعني، وأن يجعل كلا منهما كفئا للآخر.

وأما القاعدة النفسية أو العلمية لهذه الظاهرة فهي أن ما يتوافر في نفس الأديب من فكرة واضحة أو انفعال صادق يجذب إليه من الألفاظ، والعبارات، والصور ما يلائمه بطريقة تكاد تكون إليه لا توجد فكرة في الذهن دون لفظ يحدها ولا توجد عاطفة بغير صورة تمثلها.

وفي هذا المعني يقول ابن رشيق[١]:

"اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوي بقوته فإذا سلم المعني واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر. وهُجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور. وما أسبه ذلك من غير أن تذهب الروح وكذلك إن ضعف المعني واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح. ولا تجد معني يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه. وإن كان حسن الطلاوة في السمع. كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة. وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشي لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحا في غير جسم ألبتةَ".

١- نفس المرجع ص٨٢

وهذا الذي ذكره ابن رشيق كما يجري في الشعر ينطبق على النثر تماما: "وبعضهم وأظنه ابن وكيع مثّل المعنى بالصورة اللفظ بالكوة. فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها اللباس. فقد بخست حقها وتضاءلت في عين مبصرها[١]"

ويقول ابن الأثير[٢]: "اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوي عندها. وأكرم عليها. وأشرف قدرا في نفوسها. فأول ذلك عنايتها لألفاظ لأنها لما كانت عنوان معانيها. وطريقا إلى إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها. وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس وأذهب بها في الدلالة على القصد... فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها. ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط. بل هي خدمة مهم للمعاني. ونظير ذلك إبراز الصورة الحسناء في الحلل الموشية والأواب المحبرة. فإنا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذةُ لفظه وسوء العبارة عنه".

والمطابقة بين اللفظ والمعنى تتحقق بالتعبير الطبيعي الذي يترك فيه الأديب نفسه على سجيتها السمحة دون أن يعمد إلى صنعه شاذة أو تكليف ممقوت. يكون من ذلك المساواة وصدق الأداء وتنوع العبارة حسب الموضوع والشخصية كما سبق ذلك فلا حاجة إلى إعادته أو تمثيله.

١- نفس المرجع، ص٨٢

٢- المثل السائر، ص١٣٧

ونشير هنا إلى أن مظاهر هذه المطابقة، كما تتراءى في الألفاظ والعبارات، تظهر أيضا في الوزن الشعري أو البحر العروضي الذي يختاره الشاعر، وفي القافية التي يؤثرها على غيرها[١]، وفي الصورة الخيالية التي يؤثر بها عواطفه، ليكون الأسلوب من روح المعنى وعلى مثاله من غير حاجة إلى ركوب الضرورات الشعرية[٢].

ومع ذلك فإن حاولت الظفر بأمثلة لذلك رأيتها عند أمثل عبد الحميد الكاتب، وزياد بن أبيه، والبحتري ممن يعدون طبيعيين في التعبير، ولم يتشبثوا بصنعه، ولم يحبسوا نفوسهم عند تعمق في المعاني، ولا تكلف في الألفاظ.

فهذا البحتري يذكر قتال الأقارب معا، وما يلابسه من عواطف متباينة، إذ يصطدم الحب والبغض، والشفقة والقوة، وامتزج الدماء بالدموع، بأسلوب لا يصلح غيره لتصويره هذه الحالة التي كانت بين تغلب مع دقة الصنعة:

أسيت لا خوالي ربيعةَ إذ عفَتْ ** مَصَايِفُهَا منها، وأقوت ربُوعها[٣]
بِكُرْ هي أن باتت خلاء دبارها ** ووَحْشًا مغانيها، وشتي جميعها[٤]
وأمست تساقي الموت من بعدما عدت**شروبا تساقي الراح رفها شروعها[٥]
إذا افترقوا عن وقعة جمعتهم ** لأخرى دماء ما يُطَلُّ نجيعها[١]

١- راجع الصناعتين ص١٣٣-١٤١

٢- راجع نقد الشعر لقدامة ص٥٦

٣- أسيت: حزنت: وربيعة: أصل تغلب. أقوت: خلت

٤- المغاني: المنازل، شتى: متفرقة

٥- الشروب: القوم يشربون، رفه: لين شروع: مورد الماء.

تـــذم الفتاة الـــرود شيعة بعلـــها ** إذا بـــات دون الثأر وهو ضجيعها[٢]
حَمـــيَّةُ شَغْبٍ جـــاهليَّ وعـــزة ** كُلَيبية أعيـــا الرجـــال خضوعهـــا[٣]
تـــُقَتِّل مـــن وتر أعـــز نفوســـها ** عليهـــا بـــأيد ما تكاد تـــطيعها[٤]
إذا اختربت يوما ففاضت دماؤهـــا ** تذكرت القربي ففـــاضت دموعها
شواجـــر أرمـــاح تـــقطع بينـــها ** شواجـــر أرحام ملـــوم قطوعهـــا[٥]

فمن أية ناحية نظرت إلى هذا النص وجدتـــه مطابقـــا لمعنـــاه أحســـن مطابقة: جزالة تلائم مواقف الحروب. وتقســـم. ومقـــابلات. لتصـــوير الصلات المتناقضة وصور تملك ما ملك النفوس من تعـــاطف مكبـــوت وغل ثقيل بغيض وعبارة موسيقية تردد بعناصرها اللفظية مـــا يتـــردد في النفس من تيارات عاطفة متنافرة. لذلك تجد أسلوب الشـــاعر هنـــا بطيئا بعض يشبه اعتذار أبي تمام السابق وذلك لاضطرار البحتري إلى شيء من الصنعة والجزالة يحقق به حسن التصوير ودقة التعبير.

فذلك هو الأسلوب المثالي المطبوع. وهذا الـــنص مـــن أروع الشـــعر العربي جميعه.

١- يطل: يهدر. النجيع: الدم

٢- الرود: الشابة الجميلة، دون الثار: لم يظفر به

٣- الشغب: نهج الشر، كليبية نسبة إلى كليب الزعيم التغلبي المعروف

٤- الوتر: الثأر

٥- شواجر وأرماح، رماح متشابكة أثناء المعركة وشواجر الأرحام صلات القربي التي تجمع المتحاربين

(٢) ومع ذلك، ظهر منذ العصر الجاهلي جماعة من الشعراء[١] عدلوا عن هذه الطبيعة الفياضة. وعمدوا إلى أسلوب الشعر يهذبونه ويصقلون لفظه بحذف غريبه أو متنافره. والحرص على انسجام موسيقاه وتحرى مساواته. والتناسب بين فقره وجمله. ليكون جزلا حسن السبك مع خلوه من التكلف الممقوت والبديع المقصود. حتى صار الأسلوب الشعري صنعة أو فنا يقصد إليه ويعنى بإحكامه وخلوه من الفضول اللفظي والغلو المعنوي.

وكان زهير بن أبي سلمي أنجب تلاميذ هذه المدرسة، وكان الحطيئة أنجب تلاميذ زهير وتبعهم بعد ذلك أبو تمام - في بعض شعره - ومسلم بن الوليد. وعبد الله بن المعتز ممن أخذوا عن السابقين إحكام الأسلوب فيما بعد. واتخذوه حرفة يدوية وعبث أطفال.

يقول ابن رشيق[٢]:

"ومن الشعر مطبوع ومصنوع. فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا وعليه المدار. والمصنوع وإن وقع عليه الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل. ولكن بطباع القوم عفوا فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف؛ يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة. وربما

١- راجع في الأدب الجاهلي لطه حسين ص٢٨٤ طبعة ثالثة. والصناعين ص١٣٥-١٣٨

٢- العمدة جزء أول ص٨٣ و١٧٢

رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك. والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى. كما يفعل المحدثون. ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض".

ومن ذلك قول زهير يمدح هرم بن سنان:

أبيض فياض يداه غمامة ** على معتفيه ما تُغِبُّ فواضله[١]

أخي ثقة لا يهلك الخمر ماله ** ولكنه قد يهلك المال نائله[٢]

نراه إذا ما جئته متهللا ** كانك تعطيه الذي أنت سائله

فالشعر برئ من التنافر والإغراب. مع حذف الفضول. والقصد في المعنى وحسن التناسق بين الجمل وبين المعاني. حتى بدا محكما متقنا ملحوم الجوانب قد عمل فيه العقل والذوق بجانب العاطفة وقد مضى مثال الحطيئة من باب المديح.

ويقول ابن رشيق[٣]:

"فأما حبيب - أبو تحام - فيذهب إلى حرونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنع المحكم طوعا أو كرها يأتي للأشياء عن بعد ويطلبها بكلفة. ويأخذها بقوة. وأما البحتري فكان أملح صنعة. وأحسن مذهبا في الكلام. يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ. لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنعا

١- أبيض نقي من العيوب. فياض كثير العطايا. معتفيه سائلة تغب: تنقطع.

٢- النائل العطاء. راجع الصناعتين، ٩٨

٣- العمدة جزء أول، ص٨٤، ٨٥

من عبد الله بن المعتز، فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندي ألطف أصحابه شعرا وأكثر بديعا وافتنانا وأقربهم قوافيَ وأوزانا. ولا أرى وراء. غاية لطالبها هذا الباب".

ثم يقول[١]:

"وقال بعض من نظر بين أبي تمام وأبى الطيب المتنبي إنما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة، كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفا على دينه، وأبو الطيب كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهرا وعنوة أو كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع".

ونحو ذلك حصل في النثر أيضا، فلقد كان في صدر الإسلام جزلا طبيعيا يرتجل في كثير من الأحيان ويكون فيضا لما في النفوس من المعاني، سواء في ذلك الأحاديث، والخطب والرسائل، حتى جاء عبد الحميد الكاتب[٢] فكانت آثاره طبيعة سهلة لا صنعة فيها ولا تكلف، وكان بجانبه عبد الله ابن المقفع[٣]يقوم في النثر بما كان يقوم به في الشعر زهير والخطيئة، وأبو تمام في خير شعره. وكان كتاب العصر العباسي الأول- كأحمد بن يوسف، وعمرو ابن مسعدة وإبراهيم

١- نفس المرجع، ص٨٧

٢- راجع آثارهما في رسائل البلغاء التي نشرتها مجلة المقتبس

٣- راجع آثارهما في رسائل البلغاء التي نشرتها مجلة المقتبس

الضُّولي[١]- يحكمون الرسائل، وينشئونها جزلة، دقيقة المعاني، عالية الأسلوب، كما كتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون في رجل يستشفع له بالزيادة في منزلته، وجعل كتابه تعريضا لنفسه:

"أما بعد فقد استشفع بن فلان يا أمير المؤمنين لتطولك عليّ في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون وأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدّى طاعة، والسلام".

فكتب إليه المأمون:

"قد عرفنا تصريحك، وتعريضك لنفسك، وقد أجبناك إليهما ووقفناك عليهما".

وجاء الجاحظ في القرن الثالث فكان أستاذا لمدرسة خاصة أو كان هو هذه المدرسة الكتابية التي أشرنا إليها فيما مضى. وأما كتاب الصنعة البديعة فقد كانوا في القرن الرابع[٢] الهجري، وهم الذين فتحوا بابا كان فيما بعد شرا على الأساليب الأدبية لما دخل فيه المتكلفون العاجزون، وقد عرفت طرفا من أساليبهم عند بديع الزمان.

وعندي أن هذه الطبقات من الشعراء والكتاب تمثل طورا طبيعيا من أطوار الحضارة الأدبية التي تعنى بالأدب كما تعنى بسواه ليكون أقوم أسلوبا، وأجمع بين قيمة المعاني وقيمة الأساليب، على أنهم كانوا، وبخاصة بعد الإسلام متأثرين بألوان من الفنون، والعلوم الإسلامية

١- راجع تاريخ أدب اللغة في العباسي لأحمد الأسكندري

٢- راجع النثر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك

والدخيلة وبفراغ وتنافس أكسبت الأدب هذا الوضع الفني الجديد، فلا لوم عليهم ولا عتاب ولا مانع أن ينضافوا إلى السابقين كما يرى ابن الأثير[١]

(٣) وبعد ذلك تواجهنا هذه القضية الكبيرة، أو المعركة العنيفة، بين أنصار اللفظ، وأنصار المعنى، فإن هذه الثقافة الواسعة التي توافرت للأدباء، منذ العصر العباسي، مع ذكاء العقل حملتهم على العناية بالمعاني فغذوا الأدب بأفكار فلسفية وآراء دينية، وملاحظات دقيقة عميقة، وكان أبو تمام من أسبق الشعراء وأظهرهم في ذلك، ثم ابن الرومي، والمتنبي، وأبو العلاء في ذخيرته الفلسفية- اللزوميات- وكان من ذلك، ولا سيما عند شعراء الصنعة، أن ضعفة روعة اللفظ وسلاسته، وبدت عليه الجفوة العلمية أو الكلفة البديعية، وبجانب هؤلاء بقي آخرون محتفظين بالطبع السمع والديباجة السهلة الجميلة كالبحتري، وأبي العتاهية والعباس بن الأحنف، وظهرت لهم مقطوعات بالغت في السهولة حتى عادت باردة سخيفة.

فكان من ذلك، والأسباب أخرى، أن نشطت حركة النقد، وانتصر جماعة لكل فريق، واختلف الباحثون حول هذه المسألة: أين تقع البلاغة؟ أفي اللفظ أم في المعنى أم فيهما معا؟ وأي هذين الفريقين من الشعراء أظفر بعمود الشعر، وأجدر بالاحترام؟ وخلاصة ما يحتاج به أنصار اللفظ[٢] أن المعنى معروفة للناس سهلة الإدراك، يكفي أن تكون

١- المثل السائر ص١٣٧

٢- راجع مقدمة ابن خلدون؛ ص٨٥٦. والصناعتين ص٥٥

صحيحة، ولكن البراعة البيانية إنما هي في الألفاظ وصوغ العبارات، وأما أنصار المعنى فيقولون[١]: إن المعنى هو المقصود بالأداء. وهو مجال الابتكار، وحسن التصور، واللفظ تابعه في ذلك فجماله من جماله، ويدور جهد عبد القاهر الجرجاني على أن البلاغة في الأسلوب تنتهي إلى نظم الكلام وفق حاجة المعنى، وبذلك تتحقق المطابقة بينهما، ويكتسب اللفظ حسنة بصدق أدائه.

ولكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير كما ترتكز على قيمة التفكير[٢].

(٤) وعلى الرغم من ذلك فقد وجد من الأدباء من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ومتجه عنايته، ويقصد إليه، فأما أن يجعله- في الشعر- فخما مجلجلا، لا يتناسب مع معناه كابن هانيء الأندلسي حيث يقول:

أصاخت فقالت: وقع أجرد شيظم ** وشامت فقالت: لمع أبيض خذم[٣]

وما ذعرت إلا لجرس حليها ** ولا رَمَقة إلا برى في مخدم[٤]

١- راجع دلائل الإعجاز ص٤٠، ٧٠، ٣٠٧، ٣٢٠. طبعة المنار

٢- صحيفة دار العلوم جـ٢ من السنة الثانية ص٣٠ للمؤلف، وفيض الخاطر لأحمد أمين، ص٣٠١

٣- أصاخت: أصغت. أجرد شيظم: الفرس الفتى. شامت: نظرت، أبيض مخذم: سيف قاطع

٤- البرى: جمع برة: كل حلقة من سوار القرط أو الخلخال، المخدم موضع الخلخال

يصف امرأة تترقبه، فتوهمت وقع حوافر فري، ولمع سيف، وإذا بها تسمع حليها وترى لمعها، ومن يستمع لهذا الصخب اللفظي يظن أنه حماسة أو حرب قائمة[١].

وإما أن يجعله سهلا مفرطا، كما وقع لأبى العتاهية:

يا إخوتي، إن الهوى قاتلي** فسيروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى ** فإنني في شغل شاغل
عيني على عتبه منهلّة ** بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبل قتيلا بكى ** من شدة الوجد على القاتل

فهذا الشعر، كما ترى، سهل، لين، ليس بينه وبين النر العامي فرق كبير، وللبهاء زهير نحو هذا الأسلوب الذي تسمعه، فكأنك تسمع الشعب المصري حواره وأحاديثه، جدا وهزلا، في عبثه وأفاكهة، وفي كل ما يلابس حياته[٢] الوداعة المطمئنة في هذا الوادي الخصيب.

وكذلك الشأن في النثر فقد غلبت العناية اللفظية على فن المقامات، وصارت بذلك وسيلة لتعليم اللغة، وتراكيبها، وبعض عباراتها وأساليبها الجزلة. وقد أسبقنا القول في ذلك فلا نعيده هنا.

وكذلك وجد من الأدباء من يؤثر المعنى على اللفظ، فيعنى بعمقه وتركزه. وجدته، وتوليد بعضه من بعض، لا يعنى بأن يلبسه كفاءه من اللفظ الكاشف الواضح، أو السلس العذب، أو القوى المتين، فيقع في التعقيد، أو الخشونة أو الهجنة أو التكلف الممقوت فيفسدون اللفظ

١- العمدة جـ١: ٨٠.

٢- البهاء زهير للمؤلف

ويبهمون المعنى. وقد تورّط في ذلك- من الشعراء- أبو تمام والمتنبي في بعض شعرهما، وكذلك ابن الرومي، ومن الكتاب، خلدون العالم والمؤرخ المشهور.

ونورد هنا بعض الأمثلة، من ذلك قول أبى تمام:

يتجنب الآثام ثم يخافها ** فكأنما حسناته آثام

ففي هذا البيت إضمار جعل معناه غامضا على الرغم من محاولة الدلالة عليه بالشطر الثاني، وتقديره: أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة، ثم يخاف تلك الحسنة، فكأنما حسناته آثام، وذلك من قوله تعالى: "والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة".

وقوله:

وظلمت نبسك طالبا إنصافها ** فعجبت من مظلومة لم تظلم

معنى ذلك أنك أ كرهت نفسك على مشاق الأمور لنيل المجد،فهي إذا، مظلومة من حيث الوسيلة التي كابدتها، ولكنها منصفة من حيث الذكر الجميل والمجد المؤثل، فكانت مظلومة لم تظلم، وذلك من قول الشمول:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ** فليس إلى حسن الثناء سبيل

وقول المتنبي يمدح على بن أحمد الطائي بسداد الرأي، والتفرد في ذلك:

فتى ألف جزء رأيه في زمانه ** أقل جزئ بعضه الرأي أجمع

ونظام البيت كما يلي: هو فتى رأيه ألف جزى، وأقل جزى، منه، بعضه هو كل ما عند الناس من الرأي.

وقال علي بن عيسى الرماني: "أسباب الإشكال ثلاثة التغيير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبهه، وسلوك الطريق الأبعد، وإيقاع المشترك وكل ذلك اجتمع في بيت الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا ** أبو أمه حي، وأبوه يقاربه

فالتغيير عن الأغلب سوء الترتيب، لأن التقدير: وما مثله في الناس حي يقارب إلا مملكا أبو أمه أبوه، يريد بالمملك هشام بن عبد الملك، والممدوح هو إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك.

وأما سلوك الطريق الأبعد فقوله: أبو أمه أبوه، وكان يجزئه أن يقول خاله وأما إيقاع المشترك فقوله: حيّ يقاربه، لأنها لفظة تشترك فيها القبيلة والحي من سائر الحيوان بالحياة.

قال: وإذا تفقدت أبيات المعاني رأيتها لا تخرج عن هذه الأسباب الثلاثة"[1] وكتب النقد والبلاغة ملأ بهذه النماذج، وأما ابن خلدون فقد مضى فضل من كلامه.

(٥) ومما يتصل باللفظ والمعنى مسألة الإيجاز والإطناب والمساواة، وقد وردت هذه الألفاظ في كتب البلاغة أوصافا للعبارة، وعناصرها، من حيث ما تؤدي من معان، فإذا قصر اللفظ عن المعنى كان إيجازا، وإن طال لفائدة كان إطنابا، وإن كان تساويا كان مساواة أو تقديرا، ولرجال البلاغة كلام كثير في هذه الأقسام، وفيها يدخل تحتها من فروع لا حاجة بنا إلى تكرارها هنا ويمكن الرجوع إليها في المثل

١- العمدة جـ٢ ص٢٥٦

السائر لابن الأثير[١] وسواه، وقد تناولتها كتب البلاغة – غالبا – في سياق الجمل والفقر، فمن ذلك في المساواة قوله تعالى:

"إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون".

وقول جرير:

تمنى رجال من تميم منيتي ** وما ذاد عن أحسابهم ذائد مثلي

فلو شاء قومي كان حِلمَى فيهم ** وكان على جهال أعدائهم جهلي

وفي الإيجاز قوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة" وقول امرئ القيس:

فلو أنها نفس تموت سوية ** ولكنها نفس تساقط أنفسا

والمراد لو أنها نفس تموت موتة واحدة لهان الأمر، ولكنها نفس تموت موتات، وفي الإطناب قوله تعالى: "فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور" ففائدة ذكر الصدود هنا أنه قد علم أن العمى مكانه البصر حقيقة، واستعماله في القلب غير متعارف فلا بد من زيادة التقرير ليعرف أن العمى الحقيقي في القلب لا العين،

وقول البحتري:

تردد في خلقي سؤدد ** سماحا مرجي وبأسا مهيبا

فكالسيف إن جئته صارخا ** وكالبحر إن جئته مستثيبا

فالبيت الثاني يدل على معنى الأول إلا أن فيه زيادة بيانية تفيد تخييلا وتصويرا.

١– ص ٩١ وما بعدها

ولكننا نشير هنا إلى هذه الأوصاف من ناحيتها العامة التي تبدو في العبارة اللفظية المقال، أو خطبة، أو رسالة، أو وصف، أو قصيدة، وفي مقدار ما يصل بينها وبين الأغراض المعنى كلها مجتمعة، فمن الكتاب من يؤثر الإيجاز حتى يصل إلى التوقيعات والإشارات، ومنهم من يسهب ويطيل كما في الخطب والمقالات الصحفية غالبا، ومنهم من يساوى، ويغلب ذلك في الرسائل والمقالات العلمية، وقد ضرب ابن الأثير مثلا لذلك في وصف بستان ذي فواكه متعددة، فالإيجاز هو قوله تعالى: "من كل فاكهة زوجان" والإطناب قول ابن الأثير: "جنة علت أرضها أن تمسك ماء، وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء، وهي ذات ثمار مختلفة الغرابة، وتربة منجبة، وما كل تربة توصف بالنجابة، ففيها المشمس الذي يسبق بقدومه، ويقذف أيدي الجانين بنجومه. فهو يسمو بطيب الفروع والنجار، ولو نظم في جيد الحسناء لاشتبه بقلادة من نضار..الخ" كذلك أورد للإطناب مثلا من الرسائل والتقاليد فلتراجع هناك.

والنثر العصري لا يميل إلى الإيجاز إلا في التوقيعات الديوانية، والكلمات السائرة، ولكنه بعد ذلك أميل إلى الإطناب ثم المساواة، وحسبه حياة تخلصه التخلص النهائي من هذه الصنعة البديعية والإغراب اللغوي. إلى خير مستوى ظفر به في حياته ثراء المعاني وروعة الأساليب.

▪ الناحية الثالثة

وهى ناحية الصنعة البديعية، والتكلف المقصود، طمعًا في زخرفة الأساليب وتوشيتها بالسجع،والجناس، والمطابقة، والاستعارة، ونحوها من عناصر التحسين اللفظي والمعنوي. وقد كانت هذه المحسنات ترد في الشعر القديم قليلة وعفوا دون تكلف، واستجابة لقوة المعنى وصدق تصويره، كقول أبى ذويب الهذلى مستعيرا:

وإذا المنية أثبتت أظفارها ** ألفيت كل تميمة لا تنفع[١]

وقول حيان بن ربيعة الطائي في التجنيس:

لقد علم القبائل أن قومي ** لهم حد إذا لبس الحديد[٢]

وقول زهير في المطابقة:

ليث بعثر يصطاد الرجال، إذا ** ما الليث كذب عن أقرنه صدقا[٣]

"فلما أفضى الشعر إلى المحدثين، رأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة البديع، فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد ومفرط"[٤] وقد قيل إن"أول من فتق البديع من المحدثين بشاربن بن وابن هرمة وهو ساقة العرب، وآخر من يستشهد بشعره، ثم أتبعهما مقتديا بهما

١- التميمة ما يحمله الإنسان مخافة الحسد أو الشر

٢- الحد: البأس والقوة

٣- عثر: مأسدة، أي كأسود هذا المكان

٤- الوساطة، ص٣٨

كلثوم بن عمر العتّابي، ومصور الخمري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس، واتبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحتري، وعبد الله بن المعتز فانتهي علم البديع والصنعة إليه، وختم به"[١].

والذي يعنينا هنا - في الشعر - أن هؤلاء الشعراء اختلفوا في مقدار عنايتهم بالصنعة البديعية، فاختلفت أساليبهم في النظم تبعا لذلك: فأما أبو تمام فكان - في كثير من شعره - أشد الشعراء تعلقا بالبديع، وأكثرهم تكلفا له، ولا سيما الطباق، والجناس، والاستعارة، والتقسيم، حتى شوهت شعره، وذهبت بكثير من روعته وجلاله؛ فإذا لا حظنا أنه أضاف إلى ذلك محاولته الإعراب اللفظي تقليدا للقدماء، ثم اجتلابه المعاني الغائضة، والأغراض الخفية التي احتمل في سبيلها كل غث ثقيل، علمنا سر ما تورط فيه من اضطراب في التعبير، وتعقيد في الأسلوب، حتى صار هذا القسم من شعره إذا قرأ أجهد الفكر، وكد الخاطر في فهم معانيه، وتصور أخيلته وأغراضه، وما كان هذا سبيل الشعر، ولا أسلوب الفن الجميل، فصار أبو علامة التكلف الثقيل، والصنعة الفاسدة في قسم من شعره ليس بالقليل، ولو أنه جرى مع طبعه، وجانب التكلف، مع معانيه المبتكرة وأخيلته الجميلة، لكان سيد الشعراء غير مدافع[٢]؛ فإنك حين تقرأ له ما ورد أول هذا الفصل من الشعر القوى الجميل تعجب كيف يحيد عنه جريا وراء البديع، وتعلقا بالصنعة الممقوتة ليقع في مثل هذه الاستعارة القبيحة:

١- العمدة جـ١ ص٨٥

٢- راجع الوساطة، ص٢٤

بَاشرتُ أسبـــاب الغنى بمدائـــــح ** ضربت بأبواب الملـــوك طـــبولا
ضرام الحب عشش في فـــؤادي ** وحضن فوقـــــه طبر البعـــــاد
كأنني، حين جردت الرجـــاء له ** عضب صببت به ماء على الزمن

أو هذا الجناس المستكره:

إن من عـــقَّ والديه لملعـــون ** ومن عـــقَّ مـــنزلا بـــالعـــقيق
فاسلم سلمت من الآفات سلمت ** سِلام سلمى ومهما أورق السلِمُ

أو ذلك الطباق المتكلف:

قد لانَ أكثر ما تريد وبعضه ** خَشن وإني بالنجاح لواثـــــق
وإن حفرت أموال قوم أكفهم ** من النيل والجدُوى فكفاه مقطع

وشرٌّ من ذلك هذه المعاطلة بتداخل الكلمات، وركوب بعضها بعضا:

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا ** عنه فلم يتخون جسمَه الكمد[1]

وقد وقع المتنبي في مثل ذلك، كما تشبث به المتأخرون فأفسدوا الشعر وذهبوا برواثه.

وأما البحتري وابن المعتز فقد غلب عليها الطبـــع الســـمح، وســـهولة الأسلوب وعدم الكد وراء المعاني العميقة والألفاظ الغريبة، ويـــتلخص أسلوبهما في السهولة وعدم الشغف بالبديع، إلا ما جاء طبيعيا أو خفيا لا يكاد يظهر، ومعنى هذا أن قيمة شعرهما قائمة، في الغالـــب، علـــى جمال الأسلوب وطبيعته، وحسن التصوير الخيالي، فكانا مدرسة أخرى

١- راجع الموازنة بين الطائيين، ص١٠٥-٢١. طبعة الجزائب، ويريد بالبيت خان الصفاء أخ خان الصفاء أخا من أجله فلم يتخون جسمه الكمد: أي لم يؤثر الحزن في جسمه وفاء لأخيه.

تقابل مدرسة أبى تمام، وقد مضت أمثلة لشعر البحتري نعيد منها هـذا البيت فقط.

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ** تذكرت القربى ففاضت دموعها

لتلحظ فيه هذا التقسيم، وحسن الترتيـب، والمطابقـة الملائمـة بـين الشطرين في المعنى. وهكذا إذا عرض له البديع، ويقول عبد الله بـن المعتز يصف سحابة ماطرة:

ومزنة جاد من أجفانها المطـر ** فالروض منتظم والقطر منتثر

ترى مواقعها في الأرض لائحة ** مثل الـدراهم تبدو ثم تستتر

فيجمع الاستعارة، والمطابقة والتشبيه، ومع هذا لا نرى تكلفا ثقيلا ولا تعمقا عويصا.

وبين هذين الطرفين نضع مسلم بن الوليد، فقد جمـع بـين الصـنعة المعتدلة وتجويد الشعر والـبطء فـي صـنعته حتـى سـموه زهيـر المولدين[1]، واستطاع بذلك أن يفترق من أبى تمام بقرب المعاني مـن جهة، وبسلامة عبارته من الغريب، والتكلف الممقوت، ولاءم بذلك بين اللفظ والمعنى، فكان لشعره مؤسيقي قوية جميلة كقوله يهجـو دعبـل الخزاعي:

أما الهجاء فدق عرضك دونه ** والمدح عنك كما علمت جليل

فاذهب فأنت طليق عِرضك إنه ** عِرض عززت به ونت ذليل

فقد طابق بين المدح والهجاء وبين الدقة والجلالة، وبين العز والذلـة، مع جدة المعنى، وإحكام التراكيب وحسن تقسيمها، فكان بذلك من عبيد الشعر.

١- العمدة جـ١ ص٨٥

وأما في النثر فقد عرفت مما سبق أن هذه الصنعة البديعية قد انتهت إلى غايتها المقبولة على يد كتاب القرن الرابع الهجري، أمثال بديع الزمان، والخورازمي، والصاحب بن عباد، وابن العميد، هؤلاء الذين عرفوا بالسجع والجناس والطباق، واقتباس لغة الشعر أو تضمين معانيه، وقد استطاعوا لإحاطتهم اللغوية وقدرتهم الأدبية أن يجعلوا أساليبهم مقبولة ويحققوا آثار هذه الصناعة، إلا أن كثيرا ممن خلفهم على هذا الفن- وبخاصة بعد سقوط بغداد وفي عصر المماليك- لم يظفروا بمكانة السابقين في اللغة والأدب، ثم غلوا في البديع فأضافوا إلى ما سبق التورية والاستخدام والتلميح للحوادث الشهيرة، ثم التصحيف الذي كان مجال البراعة عند المتكلفين. وقد نشأ عن ذلك فساد الأساليب، وركاكتها، والتضحية بالمعاني في سبيل الألفاظ.

ويمكن إرجاع ما كان بين كتاب الصنعة، من خلاف في الأساليب إلى أصلين:

- الأول: موضوعي

حين انتقل بها بعضهم من الرسائل الخاصة، والديوانية، والعامة، إلى كتب العلم أو مخاطبة الملوك في الشؤون الدوليّة، في حين أن هاتين الناحيتين مظهر عقلي أو مصلحي يلائمه الأسلوب البسيط الواضح، ومن ذلك أن عماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧، كتب في التاريخ بهذا الأسلوب الذي عاد مغلق فألف كتابه-الفيح القسي في الفتح القدسي-وصف فيه فتح صلاح الدين لبيت المقدس بعبارة مسجوعة منها: "رحل من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا، وللنصر مصاحبا، ولذيل العز ساحبا، قد أصبحت ريِّض مناه، وأخصب

روض غناه، وأصبح رائح الرجاء، سيب العزف، طيب العرف ظاهر اليد قاهر الأيد، سنا عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملا الملأ فأفاض الآلاء".

- الثاني: شكلي

حين يختلفون في مقدار حرصهم على المحسنات وما يجمعون منها في رسائلهم وفي طول السجع وقصره، ودقة الطباق، وطبيعية الأسلوب وقد رأيت مثالا للبديع يمثل السجع القصير، القصد في الجناس وملائمة الطباق.

ونورد هنا قسما من رسالة[1] لشهاب الدين بن فضل الله العمري- تصور لنا التعلق بالصنعة في غير موضعها ثم الإسراف فيها حتى حدت غثة غير مقبولة-كتبها بين يدي سلطانه إلى نائب الشام صحبة طيور صيد جوارح أرسلها إليه، قال بعد الديباجة: "ولا زالت مواهبنا تخصه بالمزيد، وتنفحه بما يريد، وتجعل له من الجوارح ما تعترف لها السهام بأنها بغير جناحيه لا تصيب ولا تصيد. صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي بسلام جميل الافتتاح، وثناء يطير إليه، وكيف لا تطير قادمة بجناح؟ ونعلمه أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بقي رسمه، وجرب عادة صداقتنا الشريفة أن تحسب في قسمه، وقد جهزنا له الآن ثلاثة طيور، لا يبعد عليها مطار، ولا يوقد للقرى في غير حما ليقها جذوة نار، ولا تؤم صيدا إلا وترشى بدمه فلا يلحقها بغبار".

١- أحمد الأسكندري: تاريخ أدب اللغة العربية في الدول المتتابعة ص٩٢

ومثل هذه الصنعة بقيت إلى أول العصر الحديث حين تشبث بها قوم من الكتاب ظانين أنها مظهر البراعة، فلما هبت هذه النهضة، وحملت الثقافة والسرعة الناس على العناية بالمعاني والموضوعات، أنهزمت هذه الصنعة ولم تستطع مجاراة التيار المعنوي الدافع، فتحررت الأساليب بالتدريج وألقت عن كواهلها هذه السخافات اللفظية، وأخذت ترقى مستجيبة للرق العقلي والذوقي حتى بلغت الآن منزلة رفيعة لعلها لم تظفر بها قبل الآن.